التناسق الموضوعي والبنيوي في قصة لقمان في القرآن الكريم

د. خليل رجب حمدان الكبيسي

الخلاصة

يهدف البحث إلى دراسة قصة لقمان في القرآن الكريم من حيث تناسقها الموضوعي والفني، حيث أن القرآن الكريم استخدم في عرض قصة لقمان طريقة مثيرة لعواطف الخير، صارفة عن نوازع الشر، تضافر على تحقيق وظيفتها كل من المضمون والجرس والشكل، فجاءت بكل ما في حلقتها النظمية من تصوير الألفاظ لمدلولاتها، وتلوين المخاطبات في موضوعاتها، وتنوع المؤثرات بحسب معالجتها، في وحدة يشع بها النص، وتثير مختلف الانفعالات والعواطف، وتغوص إلى مكامن الشعور .

وقد هدفت في دراستي هذه إبراز مدى التناسق الموضوعي والفني فيها، فتناولت وحدة موضوعات القصة، وتكاملها، وتواصلها مع المنهج الإلهي وسننه الثابتة، ودراسة السمات الفنية، والجوانب الإبداعية التي عرضت بها، وما صاحبها من عوامل التأثير المتعددة؛ إقناعية ونفسية وفنية، ترمي إلى تأدية وظيفتها في التربية والاعتبار، والتعرف على مدى تناسق الموضوعات والمقامات مع الأساليب والألفاظ الحاملة للمعاني، ووقفت عند شخصية لقمان للتعريف بها، بقصد التمييز بينها وبين ما قد يشتبه بها من شخصيات تاريخية التبس أمرها على بعض الدارسين.

---

* رئيس قسم القرآن وعلومه – كلية الآداب– جامعة إب

مُقَدِّمَة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه ، وبعد :

لقد عالج القصص القرآني حاجة الإنسان إلى العقيدة الصحيحة، وأوضح الناموس الإلهي الذي لا يتبدل والسنن الثابتة التي سارت عليها الخليقة ونتائجها اللازمة التي بنيت عليها .

وأن قصة لقمان في القرآن الكريم -كما يظهر لي — لم تنل عناية كافية بالدراسة الموضوعية والأسلوبية، لا سيما في دراسة إبداعها الفني، مع ما تميزت به — على الرغم من قصرها — من بين سائر القصص القرآني في طريقة عرضها ومعالجاتها، فهي تعرض المنهج الإلهي الحق، وآيات الله في الكون والنفس والتاريخ على عقول البشر، وتجري ناموسه على لسان حكمائهم، ومما ينهض دليلا على صدق هذا المنهج، وصحة طريق الدعوة إليه.

لهذا قصدت دراسة هذه القصة في القرآن الكريم، دراسة موضوعية فنية، متجاوزا ما أشبع بحثه منها مما يتعلق بموضوعات الموعظة، واقتضى البحث أن يقوم على مباحث ثلاثة:

المبحث الأول : دراسة تاريخية، تناولت فيه التعريف بشخصية لقمان في التاريخ بقدر ضرورته للبحث، وتعريف بطبيعة قصته في القرآن الكريم، والهدف العام من عرضها.

المبحث الثاني : دراسة موضوعية، أوضحت فيه موضوعات القصة وأهدافها وتناسقها .

المبحث الثالث:دراسة أسلوبية فنية،درست فيه مدى تناسق البناء الفني مع المعاني،والرباط الذي يجمعهما، واستبيان مدى التأثير بهذا النظم القاهر في غرس العقيدة في النفوس، وفي تغذية العقول، وتربية السلوك، وما يستفاد من ذلك في الإرشاد والتوجيه .علما بأنني لن أدرس معها آيتي الوصية بالوالدين اللتين جاءتا استطرادا بيّن آيات وصية لقمان، آخذا بقول جمهور المفسرين: أنهما ليستا من موعظة لقمان. ومن الله التوفيق.،،،،

المبحث الأول

شخصية لقمان وقصته في القرآن الكريم

أولا- شخصية لقمان في التاريخ :

اختلفت الروايات التاريخية في تقرير شخصية لقمان الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، فاختلفوا في نسبه، وأصله، وصفته، وعمله، وزمنه، وحقيقة أمره؛ أهو نبي أم رجل صالح حكيم ؟.

أما في نسبه فقد أخذ الأكثرون برواية ابن إسحاق من أنه لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارح.[١] وذهب السهيلي إلى أنه لقمان بن عنقاء بن سرور[٢].

وأما في أصله ووصفه، فقد روى الطبري عن ابن عباس أن لقمان كان عبدا حبشيا.وعن سعيد بن المسيب: إنه أسود من سودان مصر[٣] وقيل: إنه كان نوبيا من أهل أيلة. وقال مجاهد: إنه كان حبشيا غليظ الشفتين، مشقق القدمين.[٤]

وأما في صنعته، فقيل: كان خياطا. وقيل: نجارا. وقيل: حطابا. وقيل: راعيا.[٥] وأما ابنه فقيل اسمه: ثاران. وقيل: مشكم. وقيل: أنعم .[٦]

وأما في حقيقة أمره، أكان نبيا أم رجلا صالحا حكيما؟ فروي عن السدي وعكرمة والشعبي قولهم: إنه كان نبيا، لكن النقل عن السدي والشعبي في هذا لم يثبت. ولذا قال بعض المحققين: إنه لم يقل بنبوته غير عكرمة، وذلك فيما رواه الطبري عن عكرمة من طريق جابر الجعفي.[٧] وهذه الرواية أيضا لا يصح الاحتجاج بها، لأن الراوي عنه جابر الجعفي وهو ضعيف جدا. [٨] وذهب الأكثرون إلى أنه كان رجلا صالحا حكيما. وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة ، وبه قال جمهور المفسرين .[٩] وعلى القول الأول تكون الحكمة التي أوتيها هي النبوة، وعلى الثاني فإن الحكمة هي العقل والفهم والصواب في المعتقدات

والقول.[١٠] وقد نقل في تفسير الحكمة التي أوتيها أقوال عدة ، منها : ما ذكرناه، وبنحوه روي عن ابن عباس ومجاهد. وقيل هي:حصول العمل على وفق المعلوم. وقيل: هي المنطق الذي يتعظ به ويتنبه، ويتناقله الناس لذلك ، وغيرها.[١١]

وأما زمنه، فيروى عن وهب قوله: إنه ابن أخت أيوب. وقال مقاتل: هو ابن خالته، عاش ألف سنة، وأدرك داود عليه السلام، وأخذ عنه العلم، وكان يفتي قبل بعثة داود فلما بعث قطع الفتوى. ونقل عن مجاهد والواقدي أنه كان قاضيا في بني إسرائيل.[١٢]وعلى هذا يكون زمنه في زمن داود عليه السلام، وأنه على شريعة موسى عليه السلام، وبه قال الأكثرون.ونقل عن الواقدي قوله: كان زمنه بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام.[١٣]

وقد التبست شخصية لقمان الوارد ذكره في القرآن الكريم بشخصية أخرى من المعمرين يذكرها المؤرخون، عرفت بهذا الاسم أيضا، وورد ذكرها في الشعر العربي قبل الإسلام. جاء في الموسوعة العربية الميسرة: [١٤] «لقمان الحكيم: حكيم معمر، عرف في الجاهلية قبل أن يعرف في الإسلام، وفي القرآن سورة باسمه». ويقول د. أحمد سوسة: [١٥] «لقمان اسم شخص ينتمي إلى فخذ من أفخاذ قبيلة عاد العربية القديمة، وورد ذكره في القران الكريم، وفي الشعر الجاهلي، وفي القصص، ويروى عنه أنه عمر طويلا، فكان طليعة المعمرين، وقد وصف بالحكمة: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾، وضربوا به المثل في كثرة الأكل... ويروي بعض أهل الأخبار أن لقمان ابن عاد هو الذي بنى سد مأرب، وأن مأرب أسم قبيلة من عاد».

والذي يرويه المؤرخون عن لقمان بن عاد من رواية ابن إسحاق وغيره لا يستفاد منه أنه كان مؤمنا ولا حكيما على الوجه الذي وصفه القرآن الكريم به، فقد جاء في تأريخ الطبري أن لقمان بن عاد بن فلان بن فلان بن صد بن عاد الأكبر بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، قدم إلى مكة زمن هود عليه السلام مع وفد من قومه يستسقون لقومهم حين أصابهم

القحط بعد تكذيبهم لهود عليه السلام، وكان لقمان بن عاد سيد عاد، فأقاموا شهرا في مكة يشربون الخمر، ويسمعون غناء القيان، ثم خرجوا إلى البيت يستسقون، وتخلف عنهم ثلاثة، أحدهم لقمان، ثم خرج هؤلاء الثلاثة يدعو كل واحد منهم لنفسه، فاستجيب لهم وخيروا في الطلب، فأختار لقمان أن يعمر، فأعطي عمر سبعة أنسر، كل نسر عاش ثمانين سنة، ثم مات بعد موت آخر نسر.[١٦] هذا كل ما جاء عنه، وهذه الرواية وإن كانت أسطورة كما يظهر، ولا يؤيدها سند يطمأن إليه، فليس فيها ما يفيد أنه كان مؤمنا، أو أنه من أتباع سيدنا هود عليه السلام، بل على العكس فقد ظهر فيها ما يفيد عدم إيمانه.

وقد رد السهيلي[١٧] على هذا الاشتباه بين الشخصيتين فقال: «ولقمان كان نوبيا من أهل أيلة، وهو لقمان بن عنقاء بن سرور فيما ذكروا، وابنه الذي ذكر في القرآن هو: ثاران، فيما ذكر الزجاج وغيره، وقيل في اسمه غير ذلك، وليس بلقمان بن عاد الحميري» وقال الزركلي[١٨] في ترجمة لقمان العربي: «هو لقمان بن عاد بن ملطاط، من بني وائل من حمير، معمر جاهلي قديم، من ملوك حمير في اليمن يلقب بالرائش الأكبر، زعم أصحاب الأساطير أنه عاش عمر سبعة نسور مبالغة في طول حياته، وهو غير لقمان الحكيم المذكور في القرآن» مما يفيد بأنهما شخصيتان مختلفتان.

ومما يثير تساؤلا أيضا أن يقال: إذا كان لقمان - كما يحكي بعض المؤرخين ونقله عنهم المفسرون- من بني إسرائيل، وأنه كان قاضيا فيهم، وأخذ عنه داود، وأخذ عن داود عليه السلام بعد نبوته، وأنه ابن أخت أيوب، أو ابن خالته، فلمَ لم يرد ذكره في كتبهم، مع ما عرف به من حكمة وفهم أو نبوة، بينما هم يسوقون الأحداث والشخصيات البارزة سوقا إلى تاريخهم وإن لم تتصل بهم بنسب؟ قد يقال: إن زمنه بعد زمن التدوين، وهذا يخالف الروايات السابقة، أو قد لا يكون منهم، أو أنهم لم يكترثوا لأمره لفقره ولكونه عبدا

أسود حبشيا، لكنهم نسبوه إليهم، أو تحدثوا عنه بعد إعلاء شأنه وورود ما ذكر من أمره في القرآن الكريم، فأخذها المؤرخون ؟.

والحقيقة أن تلك الروايات جميعها مضطربة لا يطمأن إليها، وليس لها سند صحيح،مع ظهور تناقضها في عرض الأحداث، فالتناقض فيها كبير جدا لو طبق على الفترات الزمنية التي ينقلونها، وكذا لو قورنت بعمر الخليقة والأنساب وكما جاء في التوراة عندهم. ومن ذلك- مثلا- أنهم ينسبون لقمان على أنه ابن باعوراء بن ناحور بن تارح. وينسبون أيوب على أنه ابن موص بن رازح بن عيص بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم بن تارح. (وإبراهيم عليه السلام وناحور أخوان)[١٩] ويقولون إن لقمان ابن أخت أيوب أو ابن خالته، وهذا يعني أنهما عاشا في زمن واحد أو متقارب. في حين أن بين لقمان وناحور شخص واحد، وبين إبراهيم وأيوب خمسة؟.

ولذا قال الآلوسي: [٢٠] «ولا وثوق لي بشيء من هذه الأخبار، على أني أختار أنه كان رجلا صالحا حكيما، و لم يكن نبيا».

وقد أكثر الناس من الروايات عنه في قوله الحكمة، فرووا عنه الكثير منها، لكنها أيضا لم تثبت عنه، وعلى هذا فأنني أرى ما ذهب إليه الشوكاني[٢١] حقا إذ يقول بعد أن أورد جملة من الأخبار والأحاديث المروية في شأن لقمان وحكمته: «وقد ذكر جماعة من أهل الحديث روايات عن جماعة من الصحابة والتابعين، تتضمن كلمات من مواعظ لقمان وحكمه، و لم يصح عن رسول الله ﷺ من ذلك شئ، ولا ثبت إسناد صحيح إلى لقمان بشيء منها حتى نقبله. وقد حكى الله سبحانه من مواعظه لابنه ما حكاه في هذا الموضع، وفيه كفاية، وما عدا ذلك مما لم يصح فليس في ذكره إلا شغلة للحيز، ومضيعة للوقت، و لم يكن نبيا حتى يكون ما نقل عنه من شرع من قبلنا، ولا صح إسناد ما روى عنه من الكلمات حتى يكون ذكر ذلك من تدوين الحكمة التي هي ضالة المؤمن» لكننا لا نستطيع أن ندفع القول بأنه

كان متبعا لشريعة نبي، كما لا يمكننا أن نعين الشريعة التي يتبعها، والذي يمكن إثباته أن القرآن أجرى القصة على لسانه بوصفه مؤمنا حكيما، وأثبت له هذه الصفة.

ثانيا– قصة لقمان في القرآن:

إن قصة لقمان الحكيم في القرآن الكريم وردت مرة واحدة وفي موضع واحد من السورة المسماة باسمه (سورة لقمان)، وهي سورة مكية، وتلك القصة مؤلفة من ست آيات، تبدأ من الآية ١٢ وحتى نهاية الآية ١٩، وقد تخللتها آيتا الوصية بالوالدين بعد الآيتين الأوليتين من القصة، وهما الآية ١٤–١٥، وآيتا الوصية بالوالدين ليستا من مواعظ لقمان في الرأي الأرجح الذي صوبه جمهور المفسرين،(٢٢) لذا فإنني لم أدرسهما ضمن موضوع البحث. ولغرض الوقوف على نص موضوع البحث، ولتجاوز الوقوع في التكرار نثبت نص آيات قصة لقمان، يقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أن اشْكُرْ للهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فإنَّ اللهَ غَنِيٌّ حميدٌ * وإذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ١٢ –١٣،

﴿ يَا بُنَيَّ إنَّهَا إنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ في صَخْرَةٍ أوْ في السَّموَاتِ أوْ في الأرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ * وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ في الأرْضِ مَرَحًا إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ سورة لقمان ١٦ –١٩

المبحث الثاني

دراسة موضوعات القصة وأهدافها

أولا- التناسق الداخلي بين المعاني والأهداف :

إن التناسق التام بين موضوعات القصة ومعانيها، والتناسب في اقتران موضوعات الوصية وترابطها في نسقها العام، يظهرها وحدة متلازمة، قد ترتبت فيها الموضوعات بعضها على بعض ترتب النتائج على مقدمتها، ترمي إلى خدمة غرضها الأول، وتصب في تنمية غرس واحد يؤدي وظيفتها، وهو ترسيخ العقيدة في القلب، وتربية السلوك في النفس والمجتمع، وتمييز طريق الحق من طريق الباطل، وهو ما نوضحه فيما يأتي:

١- الإيمان ناموس الحكمة والحكمة منبع الأيمان :

ابتدأت قصة لقمان بقوله تعالى: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله﴾ فهذه الآية تقرر حقيقة جوهرية مهمة، هي أن الإيمان بالله تقرره العقول السليمة، وتجري به الألسن التي لا يصدها الاستكبار عن الحق، فلقمان الحكيم، إذ استخدم عقله المتحرر، وفهمه الصائب، وتدبره السليم، قاده ذلك الى معرفة الحقيقة، ومعرفة حقها عليه فأداه، ووضع حكمته في موضعها السليم، فاستحق بذلك وصف الحكيم.

إن قوة الفطرة الباطنة مهيأة ومعدة لأن يميز بها الله تعالى، ويستدل بها على وجوده، ويستنار بها على الإيمان به سبحانه، لأن الإيمان بالله مساوق للفطرة المتقررة في نفوس البشر، وهو متقرر على أساس سلامة العقل من المؤثرات الخارجية، فإذا خرج الناس عن الإيمان بالله فذلك لا لدليل وبرهان حق متبع، ولا لعمل العقل المجرد، ولكن لانحراف عارض على العقول، وفساد طارئ على الفطرة، حتى إذا ما خلى العاقل وعقله قاده إلى معرفة الله سبحانه، والاعتقاد بكمال صفاته، فلا يتناقض مع ناموسه في الكون، وأن الكفر بالله والإشراك لم يدع إليه يوما العقل السليم، ولا العلم الذي يتبع المنهج الصحيح في الوصول إلى

حقائق الوجود، لأن «الله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم قد أودع في فطرته قوة الفكر المصيب، فإذا نشأ على الاعتقاد المصيب ارتاض عقله بقوانين الفكر المصيب، وإذا نشأ على ضد ذلك سخر عقله لاتباع طريق الخطأ في التفكير»،[٢٣] وأن التفكير العقلي الحكيم والمنهج العلمي هو منطلق الأيمان بالله عزوجل ومعرفته .[٢٤] فهذا اعتقاد الفطرة التي أقامها حجة على من خالف سنن الكون وناموس الحياة، لأن الفطرة البشرية في أصلها متناسقة مع ناموس الكون، فحين يخرج الإنسان بنظام حياته عن ذلك الناموس فانه لا يصطدم مع الكون الهائل فحسب، بل يصطدم أيضا بفطرته التي بين جنبيه.[٢٥]

وبهذا يثبت لنا القرآن الكريم أن الواقع التاريخي من حياة البشر الممتاز يقرر أن النفس البشرية لم تبلغ آفاق الكمال المقدر لها بأية وسيلة كما بلغتها باستقرار حقيقة الإيمان بالله فيها. لأن هذه العقيدة تحرر العقل البشري من القيود، وتمنحه الانطلاق والسمو والكمال المقدر له، وأن الكفر بالله وجحوده انحراف في العقل، وخروج على نسق الفطرة، وانتهاك للحقائق المطلقة التي يقررها أولوا الألباب، ولذا وصف الخارجين على عقيدة التوحيد بأنهم: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ البقرة١٧١، ووصف الشرك بأنه ظلم عظيم، وأنه ظلم للنفس:﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدودَ اللهِ فقدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق١، وبنحو هذا كثير، فهو ظلم للنفس لأنه صرفها عن طريق الحق، ومسار الفطرة، ومقتضى العقل.

٢- التناسب بين الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر :

جاء في وصية لقمان قوله تعالى: ﴿يا بُنَيَّ أقم الصلاة وأمرْ بالمعروف وانْهَ عن المنكر واصبرْ على ما أصابك إنّ ذلك من عزم الأمور﴾ فإذا نظرنا في القرآن الكريم وجدنا هذه الأمور الموصى بها قد جاءت مترابطة في أكثر من موضع، فالصلاة قد وردت متلازمة مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مواضع كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمناتُ

بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بعضٍ يأمرونَ بالمعروفِ وَيَنْهَوْنَ عنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ التوبة ٧١ وقوله تعالى: ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بالْمَعْرُوفِ والنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ التوبة ١١٢.

فهذا التلازم يظهر أن بينهما تواصلا ووشيجة مستمرة، فالصلاة التي أُمِر المؤمنون جميعا بإقامتها هي مولد للنشاط، ومدد لضمير المؤمن، يقويه على فعل الخير وترك الشر ومقاومة المنكر في نفسه، وتبعث في النفس طاقة تتغلب على جوانب الضعف، فينطلق منها المصلي إلى المجتمع يغرس فيه جوانب الخير، ويترع منه نواحي الشر، وهذا ما تستدعيه إقامتها، ولذا وصفها القرآن بقوله: ﴿ وأَقِمْ الصَّلاةَ إنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ العنكبوت ٤٥. فوجه إقامتها على عمق مغزاها وحكمتها؛ إئتمار بالمعروف، وانتهاء عن المنكر في النفس،[٢٦] واستعداد لتحقيقهما في الخارج، فالتقت مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عمليا في المجتمع، لأن ما يقوم في النفس من خير، أو ما يتقرر في العقل والقلب من فضيلة، مدعاة إلى بسطه للآخرين.

وهكذا تناسب الصلاة مع الصبر، فقد ورد اجتماعهما في القرآن الكريم في أكثر من موضع، منها قوله سبحانه : ﴿وَاسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ والصَّلاةِ﴾ البقرة٤٥، وقوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ البقرة١٥٣، فالصلاة قوة روحية تعين على مواجهة المتاعب في الحياة، ولذا كان النبيﷺ إذا حزبه أمر فزع الى الصلاة.[٢٧] ومثله التقاء الصبر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجهه ظاهر لا يدعو إلى استبيان حكمته. وهكذا يتبن لنا مدى الدقة في اجتماع هذه الأعمال الموصى بها، ومدى تلازمها في موعظة لقمان، وتلاقيها مع نسق القرآن وأهدافه.

٣- التناسب بين الإشراك بالله وبين التكبر والعجب :

تضمنت وصية لقمان لابنه نهيه عن التكبر والخيلاء بقوله: ﴿ولا تُصعرْ خدك للناس ولا تمشِ في الأرض مرحا﴾ عقب نهيه عن الإشراك بالله وأمره بأداء العبادة خالصة لله وحده،

ووجه التناسب والالتقاء بين هذه الموضوعات يظهر مما بيّنه القرآن في أكثر من موضع من أن الاستكبار هو السبب الأكبر في الصد والصدود عن المنهج الحق، وعن الامتثال لأمر الله والخضوع لجلاله، ابتداء بمعصية إبليس كما قال: ﴿إلا إبْليسَ أبى وَاسْتَكْبَرَ وكانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ البقرة٣٤، وعن فرعون وجنوده: ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ﴾ القصص ٣٩، وعن أهل الكتاب بعد إرسال موسى وعيسى عليهما السلام: ﴿ أَفَكُلَّمَا جاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ البقرة ٨٧، وقوله:﴿ إِنَّهُمْ كانُوا إذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إلا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ الصافات٣٩، وهكذا مما جاء في هذا المعنى وهو كثير جدا في القرآن الكريم.

إن هذا التلازم يفيد أن آفة الكبر والاستكبار تبعث على الخروج عن منهج الله، وعن الإيمان به، وتودي بصاحبها إلى مضادة الحق، وأن الشرك استكبار على الحق، وباعثه الأساس عجب الإنسان بنفسه وتكبره على غيره، فمن تكبر على الحق تجرأ أن يتكبر على الناس، ومن تكبر على الناس تجرأ أن يتكبر على الله عز وجل، لأن حب الذات، وما يسيطر على النفس من غرور وزهو يبعث على التكبر، ويجرها إلى عدم الاكتراث بالغير، واحتقار أعمالهم وأقوالهم، ويقودها إلى العناد الأعمى، وعدم الخضوع للحقائق مهما كانت آياتها ظاهرة.

وهكذا يظهر لنا مدى التناسق بين موضوعات الوصية وتناسبها المتوائم مع هدفها الأسمى؛ ترسيخ العقيدة في النفس، ودفع كل ما قد يعترض استقرارها في القلب، متمثلة بتلازم الاعتقاد والعبادة والأخلاق في دائرة لا ترى فيها من فروج، تقود الإنسان الى التحرر الكامل من الخضوع لهوى النفس وأغراضها، ودواعي الانحراف في المجتمع، وتقيم بدله الخضوع التام لله سبحانه، بحيث يكون مؤسسا على طرفي الإيجاب والسلب.

ثانيا– التكامل والتواصل في أصول المنهج الإلهي:

لقد عالجت وصايا لقمان قضايا الإنسان الكبرى في عالمي الغيب والشهادة، فمثلت وحدة متكاملة في المنهج الإلهي الذي جاءت به الشرائع السماوية في جميع مراحلها. وهذه الحقيقة يقررها القرآن الكريم في قصصه عن دعوة الأنبياء جميعا، فهي كلها تتفق في أصول المنهج السماوي في العقيدة والعبادة والأخلاق، في وحدة لا تنفصم ولا تتبدل، وما الاختلاف بينها إلا في تفصيلات الشرائع العملية تبعا لتدرج التشريع مع مقتضيات تحقيق مصالح العباد، بالنظر إلى أحوالهم وقدراتهم المختلفة في الأزمان والأماكن، والتي استقرت في صورتها الكاملة التامة في شريعة الإسلام. كما أنها تتفق في منهج الدعوة في وسائلها وأساليبها الذي مثلته قصة لقمان في تكامله وتواصله،

ففي أصول الدين جاء في وصية لقمان الدعوة إلى الإيمان بالله وبصفاته، والشكر له، ونبذ الشرك، وهذه القضية لا جدال في ثبوتها في جميع الشرائع السماوية، ولبداهتها لا تحتاج الى دليل، بل ليس من آيه قصصية في القرآن أو غير قصصية إلا وهي متضمنة – كما يقول ابن القيم – دعوة الى وحدانيته وتنزيهه،(٢٨) ومن الآيات الجامعة في ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ النحل٣٦.وهكذا الشكر لله سبحانه والإيمان باليوم الآخر.

وفي الأحكام العملية التعبدية جاء في الوصية الأمر بإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما عبادتان ثابتتان في جميع الشرائع السماوية على الجملة. قال سبحانه: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ على المؤمنينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً ﴾ النساء ١٠٣.﴿ الذين إنْ مَكَّنَّاهُمْ في الأرْضِ أقامُوا الصَّلاَةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ الحج٤١.

وفي مكارم الأخلاق فقد أوصى لقمان ابنه بالصبر، ونهاه عن التكبر على النـــاس، وعن العجب بنفسه والتبختر، وأمره بالاعتدال في المشي والقصد فيه، وغض الصـــوت.ولا شك أن هذه المبادئ الأخلاقية قائمة في دعوات الأنبياء عليهم السلام، إذ ما الأخـــلاق إلا ثمرة العقيدة التي يعتقدها الإنسان، وهي وإن لم تتكرر كلها بهذا النحو الذي جـــاءت بـــه الوصية، إلا أنها قائمة في أكثر من موضع. ومن هذا تتضح لنا جملة من الحقائق، منها:

إن هذه الوصية تهدف إلى إقامة المنهج الإلهي في محاوره الثلاثة، في تكامل ثابت لا يتبدل، ولا يقبل التبدل، بسبب ابتنائها على أساس قائم أبدا، هو أن الحاجة إليها قائمة في جميع العصور.

وأن هذه الوصايا جاءت تهدف إلى الوصول بالإنسان نحو الكمال العالي المقدر له بتناســـق في جميع شؤونه، لكنها في الوقت ذاته لم تغفل طبيعة الإنسان وقدراته المتفاوتة في اســـتعداده لبلوغ المستوى العالي من الكمال، لذلك جعلت حدا أدنى منه، وهـــو ضـــروري لتكـــوين الشخصية المؤمنة بالله على نحو مقبول، يتمثل بالقيام بجملة من الأوامر، وهجر جملـــة مـــن الأعمال المنهي عنها، ولذا فصل بين وصاياه بجملة: ﴿إن ذلك من عزم الأمـــور﴾ ووجـــه تخصيص هذه الطاعات بعزم الأمور لأنها أمهات العبادات، وعماد الخير كله، [٢٩] فهي ممـــا جعلها الله عزيمة، وأوجبها على عباده.[٣٠] وبجانب هذا مستوى آخر أسمى منه، يتمثـــل في الأمور الأخلاقية المندوب إليها بعد تحقيق المستوى الآخر من الكمال، ليبلغ الكمال العـــالي المقدر له، وبما يجعل هذه الوصية شاملة في أصولها، واقعية في تطبيقها.

كما يستنتج من التوافق والانسجام بين دعوة لقمان ودعوات الرسل عليهم السلام، توافق العقل والنقل في صحة هذه الأصول وضرورتها لسمو البشرية، لأنها مما أثبت صلاحها وصدقها الواقع التاريخي على لسان الصفوة المختارة من البشر، فهي التي تتقبلـــها العقـــول المستنيرة، ولا تجافيها الفلسفة والحكمة الحقة، وهي التي قررها الوحي وأقام عليها منهج الله في الأرض على لسان الأنبياء عليهم السلام .

ثالثا– التكامل والتواصل في منهج الدعوة إلى الله:

تمثل قصة لقمان منهجا متكاملا في الدعوة إلى الله، وفي طريق تحقيق المنهج الإلهي في الأرض، بما أظهرته من حق الدعوة إليه على المؤمنين، وخطوات القيام بهذا الواجب ووسائله وأساليبه، وبما يحقق لها النجاح في وصولها إلى الهدف المقصود. ونوضح ذلك فيما يأتي.

(أ) إقرار المنهج الإلهي مسؤولية الجهد البشري : لقد اختار الله سبحانه صفوة مختارة من عباده هم الأنبياء والرسل، وثلة مختارة من أتباعهم الصادقين لإقرار المنهج الحق في الأرض، وما إشارته سبحانه إلى قيامهم بواجباتهم إلا تعليما وإرشادا إلى أن هذا المنهج لا بد لإقراره من جهد بشري: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الرعد١١. ذلك لأن هذا المنهج لا يتحقق في الأرض بمجرد تنزله من عند الله، ولا بالقهر الالهي، ولكن عن طريق الجهد البشري في حدود الطاقة البشرية، والواقع الذي يعيشه البشر، دون أن يعني هذا استقلال الإنسان بالأمر، وانقطاع قدرة الله وتدبيره عنه،﴿والذينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وإنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾العنكبوت٦٩، فالأمر كله في النهاية لله، ومن تدبيره وإرادته، ليتم ما يريد عن طريق الأسباب،وهذا ما أظهرته آيات لقمان، فإن الله تعالى بعد أن قال: ﴿ولقد آتينا لقمانَ الحكمةَ أنِ اشْكُرْ للهِ﴾ أعقبه بقوله: ﴿وإذْ قالَ لُقْمانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ ..﴾ لينبه إلى أن مقتضيات الإيمان وضروريات الحكمة تلزم من عرف الحق أن يعرف به الآخرين ويعظهم به، لأن علو مرتبة الإنسان لا تتحقق في كماله في نفسه وانطوائه عليها، فهذه هي الأنانية الممقوتة بعينها، بل عليه أن يكون مع ذلك مكملا لغيره. ولذا ترى القرآن الكريم شرف لقمان وكرمه بتخليد ذكره خلود القرآن نفسه، وأثنى عليه بوصفه بالحكيم، وأسقط عنه كل الصفات الزائلة التي لا تدخل في ميزان الرجال، ككونه أسود، عريض الأشفار، مشقق القدمين، فقير الحال، وأبقاه مثالا يحتذى، وأسوة في طلب الكمال، ومن الملاحظ أن القرآن الكريم في قصصه غالبا ما يستغني عن ذكر الأسماء تأصيلا لسنن الله

وقوانينه التي تحكم البشر، مشيرا إلى أنها لا تخضع في ثبوت صلاحها للحياة لامتثال فلان لها من الناس أو لعدم امتثاله لها، وإنما هي تتحقق نتائجها بحصول أسبابها .

(ب) خطوات التنفيذ: لم يقدم لقمان على دعوته إلى المنهج الحق إلا بعد أن أعد لها عدتها، فتحصن عقائديا وفكريا لما قد يواجهه من عناد وخصام في الحق، فبدأ أولا بنفسه، كما قال عنه سبحانه: ﴿ولقدْ آتينا لقمانَ الْحِكْمَةَ أنِ اشْكُرْ للهِ﴾، فلما تحقق له هذا لزمه حق الله في الدعوة إليه، وحق المجتمع عليه.

ولا شك أن دعوة المجتمع لها خطواتها وخطتها، ومنها أن يبادر إلى من يلوذون به قبل الأباعد، فيبدأ بمن هم أقرب إليه، وهذا ما أشار إليه سبحانه بالتصريح بالمقدم له الوعظ، وهو [ابنه]. إذ من الممكن أن تسقط هذه الكلمة في التعبير العادي دون تأثير لها على مجمل الوصايا، لكنها في النسق القرآني تؤدي وظيفة معنوية، وتشير إلى ما نهجه أصحاب الدعوة الإلهية من الأنبياء والصالحين في العصور المتعاقبة التي مرت بها. فهذا نوح يدعو ابنه وزوجته، وإبراهيم يدعو أباه ويوصي بنيه، وهكذا يعقوب، ولوط يدعو أهل بيته، ورسولنا الكريم يدعو عشيرته الأقربين بقوله: ﴿وأنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ الشعراء٢١٤، وهكذا فعل غيرهم من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام كما قصه القرآن الكريم عنهم.

كما أن في التصريح بهذه الكلمة إشارة إلى الحث على دعوة الأباعد أيضا، لأن الله سبحانه إذ أثنى على لقمان وشكر سعيه بوعظه ابنه، وهو حق البنوة كما هو حق الله، وقد تدعو إليه العاطفة، فإن من دعا الأباعد أولى بشكر سعيه.(٣١)

(ج) وسائل الدعوة وأساليبها:

لقد جاءت وسائل الدعوة إلى الله متكاملة في قصة لقمان، تمثلت في القول والفعل والسيرة الحسنة، وهي ظاهرة من عمل لقمان في دعوته لابنه، ثم من وصيته له التي رسم فيها منهجا للدعاة، ووصيته له بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو يتضمن الجانب العملي منه،

وبوصيته عقبه بالصبر، ثم بما أمره بعده من تمسك بفضائل الأخلاق، واجتناب رذائل الصفات في السلوك، ليكون قدوة حسنة لغيره، فما الأخلاق إلا منحة العقيدة التي يعتقدها الإنسان، فهي التي تمنحه روح التجرد والقوة والقرب من الناس، وهو مما لا يغيب أثره في نفوس الآخرين. (٣٢)

وأما أسلوب الدعوة: فإنك إذما تقرأ هذه الوصايا تلاحظ أنها جاءت موجزة تؤكد على الأصول فحسب، ترفقا بالمدعو، وتدرجا في تقرير الأحكام، وهذا ما يقتضيه أسلوب الدعوة، تبشير وتيسير وتلطف تبعا لحال المخاطبين. وإذا طالعت أول آية في موعظة لقمان وهي قوله تعالى: ﴿وإذْ قالَ لُقمانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ باللهِ ..﴾ الآية، فإنه تتجلى لك حقيقة منهج الدعوة في أسلوبها، كما يظهر منها أسلوب تربية الآباء للأبناء أيضا، فهي تحدد منهج الداعية في أسلوبه وصفا وروحا ولفظا وحديثا وأدبا، فتصور الداعية بطبيعته الخيرة الرحيمة اللينة، المعدة لأن تتآلف حولها القلوب، وتصغي إليها الأسماع، وبما يشعر المخاطب أن المتكلم قاصد إيصال الخير والفضيلة إليه، ذلك أن الدعوة إذ تقوم على الإقناع بالحجة والبيان، فإنها في الوقت نفسه منضبطة بضوابط تنسجم مع وسائلها لبلوغ المقصود بها، وهو ما يشعرك به ابتداء قوله تعالى: ﴿وهو يعظه﴾ الذي يضيف معنى إرشاديا إلى أسلوب الدعوة، هو اتباع الموعظة الحسنة التي يشعر منها المخاطب أنك تناصحه، وتقصد إيصال الخير له، لا لغرض أو هوى في النفس، (٣٣) كمغالبة أو طمع، هي دعوة للخير والفضيلة في موضوعها، مبنية على القصد الحسن والنية الصادقة، هدفها الإصلاح والتربية، إذ الوعظ كما يقول اللغويون كالخليل والشريف الجرجاني هو: التذكير بالخير فيما يرق له القلب،(٣٤) لا زجر فيه ولا قسر.

وهذا ما يجسده مرة أخرى افتتاح المخاطبة له بقوله: ﴿يَابُنَيَّ﴾، فإنك إذ ما تخاطب أخا لك بقولك له: يا أخي .. ثم تلقي كلامك عليه، فإنك تقدح في ذهنه أنك محب له، غير متحامل

عليه، تطلب له الخير لا المغالبة، فينقلب قلبه صاغيا إليك، وهو الأنجع في أساليب الإقناع، وأدعى إلى عدم النفرة مما سيقال، لأن الناس بحاجة إلى كنف رحيم، ورعاية فائقة، وبشاشة سمحة، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم، بل إن القرآن الكريم ذهب إلى أكثر من ذلك حينما استخدم صيغة التصغير بقوله: ﴿يا بُنَيَّ﴾ و لم يقل: [يا ابني]، والتصغير هنا تصغير إشفاق ومحبة، (٣٥) لأن صيغة [بني] هنا ليس هو على حقيقة التصغير، وإن كان على لفظه، وإنما هو على وجه الترقيق.(٣٦) ثم كرر هذه الصيغة في الآيات الثلاث الأُوَل من آيات الوعظ الخمس، تأكيدا على أهميتها، وإرشادا إلى الأخذ بمقتضاها.

كما استخدم عند المخاطبة أداة النداء [يا]، وهي أداة لنداء البعيد في أصل وضعها واستخدامها، ولكن قد يخرج بها عنه إلى القريب لغرض بلاغي، مثل الإشارة إلى عظيم قدره وبعد مترلته ومكانته لدى المتكلم، أو تنبيهه إلى غفلته وشرود ذهنه فكأنه غير حاضر، فيدعوه إلى حضوره معه بعقله وقلبه مع جسده. (٣٧)

فانظر كم افاضت كلمتان من معان، قررت منهجا متكاملا في أسلوب الدعوة ووسائلها، وهذا الأسلوب هو الذي سار عليه الرسل من قبل ومن بعد، في جميع المراحل التاريخية التي مرت بها الشرائع السماوية، يزدادون لطفا كلما ازداد الأعداء قسوة، صابرين للحق وعلى الحق، لا يفترون عن التواصل في دعوهم، يخاطبون الناس بما تتقبله عقولهم، ويدعونهم إلى الحق برفق وسلام،ويبتعدون عما يحرجهم أو ينفرهم من سباب وتقريع، أو مغالبة باطلة، إلا عندما يتجاوز فيه المخاطب الحد المشروع، فيكون الخروج بقدره، وبما يلائم الدعوة في كل عصر وكل مجتمع، ومع هذا فالصبر عند الإمكان أفضل إذا لم يلحق الضرر بالدعوة، (٣٨) ﴿ولا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ ولا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بالتي هِيَ أَحْسَنُ فإذا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فصلت٣٤، لأن التسامح والرحمة والصبر ترد النفوس الجامحة إلى الهدوء، فتنقلب من الخصومة إلى الوداعة، ومن التبجح إلى الحياء والإذعان.

فهذا هو ناموس الله في الأرض، منهج واحد متساوق مع الفطرة، تصلح عليه شؤون الناس، وتصطلح عليه القلوب والعقول، ويتوافق في تقريره الوحي والعقل، قرره الوحي على لسان الأنبياء وساروا على وفقه، وقررته العقول البشرية السليمة على لسان حكمائها، ليلتقي النقل والعقل في تقرير المنهج الحق، وفي طريق الدعوة إليه، وإثبات صحته

وأن في تكريره سبحانه الإشارة إلى هذا المنهج الدعوي على لسان الأنبياء والعقلاء من البشر، بأسلوبه وإيقاعاته ومخاطباته، وتنبيهه على اطراد السنن الإلهية في الخليقة، وأثبت ذلك في كتابه، فقرر الأسباب،وعلق عليها النتائج، فكانت دائما كما قررت وعلقت، ما يثبت وحدة الدعوة الإلهية في جميع العصور، وسلامة طريق الدعوة وصحته، ووحدة قانونها الذي لا يتبدل، وتشابه الناس في مواقفهم منها، ووحدة النتائج المترتبة على تلك المواقف، لأن هذا بمثابة الاستقراء الشامل للواقع التاريخي، ولنفوس البشر ومواقفهم من السنن الإلهية، الذي يقيم الدليل على ثبات الحقيقة المستقرأة، واطراد نتائجها، ذلك أن وحدة نتائج القوانين الثابتة للأحداث المماثلة المتكرر وقوعها في الأزمان والأماكن المختلفة على مر العصور التاريخية يؤخذ منها صحة تلك القوانين، وثبات تلك الأسباب الصحيحة للسنن، وحتمية حصول تلك النتائج عند حصول أسبابها الصحيحة. (٣٩)

المبحث الثالث

دراسة أسلوب القصة وعوامل التأثير فيها

إن القرآن الكريم إذ عرض هذه القصة بما احتوته من معان وعبر فإنما عرضها لغرض الاعتبار بمعانيها، والاهتداء بتوجيهاتها، والتأثير بمحتواها، وقد أشرنا سابقا إلى أنها قد ارتبطت بمحورين أساسيين تهدف إلى إقرارهما .الأول : التعريف بدين الله، وأنه الحق والصدق الذي يؤيده النقل والعقل. الثاني: التعريف بمنهج الدعوة إلى هذا الدين، ووسائل تحقيقه في الأرض، وإقامة الأدلة المتلاحقة على وحدته وصحته .

ولكي تأتي مؤدية لغرضها فإنه عرضها مصحوبة بمؤثرات متنوعة تناسب الغرض الذي سيقت له، والمقام الذي جاءت فيه، والوظيفة التي تؤديها، استخدم فيها ألوانا متعددة من الأساليب والمخاطبات، وبحسب ما يقتضيه اختلاف عوامل التأثير في البشر، فجاءت تخاطب العقل عن طريق الحس، وتثير العاطفة عن طريق الشعور، وتجذب الأسماع عن طريق الحشد الفني القاهر. ولاستجلاء هذه الحقيقة، فإنني سأدرس هذه العوامل المؤثرة في القصة للوصول إلى الغرض منها، وبقدر التدليل المناسب عليها.

أولا – المؤثرات الإقناعية :

١-إن دراسة سياق القصة بين آيات السورة مما سبقها ولحقها يظهر أنها جاءت للإقناع، وأقيمت دليلا على الهدف منها. فقد جاءت بعد آيات افتتحت بها السورة ترشد كلها إلى الإيمان بالله وبما أنزله في كتابه الحكيم، وتعالج قضية العقيدة، فقسمت الناس بازائها على فريقين: فريق عرف الحق والهدى فاتبعه، فقال في وصفهم: ﴿أولئكَ على هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وأولئك هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لقمان٥. وفريق صده استكباره عن الحق، فسَخَرَ من آيات الله، وامتنع عن سماعها بعناده وجهله، واستبدل بها لهو الحديث: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ

الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أولئك لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ لقمان٦. يعني عن جهل وسوء تصرف في عقله، ثم يسوق البراهين على صحة منهج المؤمنين وضلال المشركين، بدعوتهم إلى النظر في هذا الكون الفسيح ليتأملوا في مخلوقاته ويدبروا آياته، ليعلموا هل ما هم عليه صادر عن علم أم عن جهل؟، ثم يسوق قصة لقمان ضمن هذا المساق، ليقيمها دليلا على أن ما عليه هؤلاء المشركون ليس من العقل والتعقل في شئ، ولا هو من مقتضيات الحكمة، بل هو مما يخرج عنها ويضادها، لأن العقل يقود إلى الإيمان بالله والشكر بدلا من الجحود، بل إنه يدعو صاحبه إلى أكثر من مجرد الإيمان، فهو يقوده إلى تحمل مسؤولية إقرار هذه الحقيقة في الأرض، وفيه تقريع لهم فكأنه يقول بذلك: هذا هو حال الحكماء والعقلاء وشأنهم، فهل ما أنتم عليه من العقل والحكمة في شئ؟. كما أن فيها تثبيتا لفريق المؤمنين على الإيمان عن طريق الموازنة والثناء الضمني عليهم.

٢- أساليب الإقناع في القصة نفسها: وأقصد به مخاطبة القرآن الكريم فيها للعقل بهدف إقناعه بما جاء فيها . ومن ذلك : ابتدأت القصة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ للهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾، إنها تجربة عقل سليم وفكر حكيم يطمئن إليه الفكر البشري ، فتثيره للنظر والتفكر ، وإعادة الحساب مع نفسه في قصور نظره ، وتستدعيه للبحث فيما وراء هذا الكون بأناة ، قصداً إلى إدراك الحقيقة ، وتدعو إلى الاقتناع بها. كما أنها برهان على صحة ما جاء به محمد ﷺ من عقيدة لأنها الحقيقة المستمرة التي تجري بها ألسن الحكماء (٤٠) من الناس. ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَرُ إلاّ أُولوا الألبابِ﴾ البقرة٢٦٩.

ثم يختم الآية بمؤثر إقناعي آخر، وذلك ببيان أن الإيمان رصيد للإنسان مذخور ينفعه وحده، وليس من سبيل العقلاء أن يعرضوا عما ينفعهم، لأن الله سبحانه لا ينفعه شكر الشاكرين،

ولا يضره كفر الجاحدين، فهو الغني بذاته غير محتاج إلى غيره، ومحمود على كل حال، وما نفع الإيمان إلا عائد إلى صاحبه، وما ضرر الجحود إلا راجع على صاحبه.(٤١)

وهكذا الآية الثانية وهي: ﴿وَإِذْ قالَ لُقْمانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فإنها تصرح بأن هذه وصية والد لولده، وموعظة أب لابنه، وما يكون الوالد لابنه إلا ناصحا، وما يريد له إلا الخير، فنصيحته مبرأة من كل تهمة، بعيدة عن كل شبهة وظنة، لأن إرشاده لا يكون مصحوبا بأغراض شخصية، كيف وأن والده سليم مما يقدح في فكره فهو حكيم. وفي هذا دليل على صحة مضمون هذه الوصية.(٤٢)

ومن هنا وجدنا القرآن لا يصرح بدعوة الآباء إلى بر أبنائهم لأن وصيتهم بهذا مغروزة في فطرتهم، مع أنه كثيرا ما دعا الأبناء إلى الإحسان بالوالدين قولا وفعلا.

ثم يدلل على أن الشرك خطأ في القول، وخطأ في التفكير والتصرف بقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وسنورد ذلك في موضوع التوكيد.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذلكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ في خاتمة الوصية الثالثة، تعليل لوجوب الامتثال بما سبق من أوامر ونواه، وإيذان بأن ما بعدها ليس بمثابتها، لأنها مما عزمه الله وقطعه على عباده لمزيد مزيتها،(٤٣) كما أنها من عزائم أهل العزم، إذ أدرك العقلاء مزيتها بحكمتهم، وجرت على لسانهم، فأمروا بها.(٤٤) وفيه قطع الطريق عليه من التردد فيها. وهكذا ما صاحب كل خواتيم الآيات من أدوات أو أساليب توكيدية قصد بها إقناعه بالمؤكد فيها، وإقرار حقائقها في نفسه، بإظهار أهميتها.

ثانيا – المؤثرات النفسية :

لقد أستخدم القرآن الكريم في موعظة لقمان مؤثرات نفسية متنوعة، تلتقي مع غيرها لتحقيق الغرض منها، فمرة عن طريق التحول السريع من مخاطبة العقل وبأسلوب لين وتقريري إلى التهديد والإثارة، وهذا ما تجده مثلا من تحوله في المخاطبة لابنه التي كان

يخاطب فيها عقله بهدوء ظاهر بقوله : ﴿ وإِذْ قالَ لُقْمانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ باللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ إلى الانتقال المفاجئ لعرض القضية في المجال الكوني الرحيب، في تصوير معبر عن عظمة الله، وكمال قدرته، وشمول علمه، وحضور الأعمال بين يديه يوم الحساب،(٤٥) فيقول: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ فيتملى من خلال هذا التعبير المثير علم الله الذي يتابعه، وقدرته التي تسيره، وكمال عدله الذي يحاسبه، لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ويأتي بها يوم القيامة شاهدا عليه، مما يثير في نفسه حالة الخوف والهلع والرهبة من مخالفة الله في السراء والضراء، وحالة الرغبة في الطاعة، إنها حقا صورة مثيرة، وعامل يبعث النفس على التأمل، ويشحذ القلب بالعاطفة، فيخشع لله وينيب، كل ذلك بما اتخذه من مؤثر نفسي مصور، انتزعه من مشاهد الكون، ومازج فيه بين عالم الحس والشهادة وبين عالم الغيب.

ومرة يستخدم التشبيه لهذا الغرض، مثل قوله: ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ فإن الصَعَرَ في أصله اللغوي: داء يصيب الإبل فيلوي أعناقها، فاختار القرآن الكريم هذا التعبير مبالغة في تقبيح حال المتكبر وتنفير منه، (٤٦) وبما يثير في نفسه كراهية الإقبال على فعلٍ ما يشبه فعل الحيوان المريض.

وهكذا في قوله: ﴿ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ فبعد أمره بغض الصوت فاجأه بقوله: ﴿أنكر﴾ أي: أقبح وأوحش، (٤٧) ليثير نفسه ابتداء إلى ما بعده، ويمهد له بتنفيره منه. ثم يعقبها برسم مشهد مضحك يدعو إلى السخرية والاستهزاء من المقصود به، مع النفور والبشاعة،(٤٨) فشبّه الرافعين أصواتهم بالحمير، ومثّل أصواتهم بالنهاق، ثم أخلى الكلام من لفظ التشبيه، وأخرجه مخرج الاستعارة، وهو مبالغة شديدة في الذم والتهجين، وإفراط في التثبيط عن رفع الصوت. (٤٩) ثم إن تشبيه الأصوات الزاعقة

بصوت الحمير، وتشبيه الزاعقين بالحمير تحديدا فيه نكتة، لأن الحمار مثلٌ في الـذم البليـغ والشتيمة، حتى أن العرب كانت تنفر من ذكر اسمه في المجالس فيكنون عنه.(٥٠) كما أن فيه منفرا آخر؛ لأن العرب كانوا يرون أن كل الحيوانات تصيح عند حاجتها إلا الحمـار فإنـه يصيح عند عدم الحاجة وينهق، فصوته لذلك منكور، مع أنه لو مات من الحمل والضرب لا يصيح،(٥١) فكأنه جعل الأصوات العالية في غير حاجة تشبه صوت الحمير في كونها خالية من الهدف الصحيح، و لم تدع حاجة معتبرة إليها، فهي تدل على بلادة كبلادة الحمار، وهـذا مؤثر نفسي كبير بلا شك يدفع بقوة إلى الانتهاء عن مثل هذا التصرف السيئ، لما فيه مـن مبالغة في السخرية منه والاستهزاء به.

كما تجد المؤثرات النفسية في الحضور الإلهي الدائم الذي يذكرك به في كل وصية، لاسيما في خواتيم الآيات بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيـفٌ خَـبِيرٌ﴾، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كَلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، وبما يضفي على النص إثارة نفسية لما تستشعره من سـلطان الله تعالى ورقابته وقدرته، تبعث في النفس الرغبة في الرجوع إليه، والرهبة والخوف من عصيانه، لأن تدخل قوة غيبية عظيمة لها قدرة وإرادة مطلقة، وإحاطة علمية شاملة بتوجيه الأحداث وبما يؤثر على نتائجها، هو عنصر مهم من عناصر الإثارة النفسية الـذي يمـلأ الإحسـاس بالرغبة والرهبة.

ثالثا– المؤثرات الفنية:

وهذا مؤثر آخر يلتقي مع ما سبقه في حلقة النص في وشيجة لا تنفصم، ليـؤدي دوره في الإثارة والإقناع، وبما يخدم رسالة النص عموما، وفي هذا الموضع نتناول طرفا من ذلك، لا أدعي فيه الوقوف عند كل أثر فني ، ولا أقصد ذلك أيضا، لكنني أتوخى إبراز الدليل على الموضوع من السمات الجمالية والقيم البلاغية في أسلوب القصة، من خلال النظر في مواضع الحسن في انتقاء الألفاظ، وتناسبها في مواقعها، وتزاوجها مع المعاني، وما تكتسبه من صفاتها

الذاتية، وتؤديه من دلالات أصلية وثانوية، وما تضفي به على عقد النظم من جمال وإثـــارة، وبما يخدم غرضها ويتناسق معه.

١-التناسب والتناسق المعنوي :

فقد قدم أولا أصول العقيدة ثم العبادات ثم الأخلاق حسب أهميتـــها، وقـــدم في العقيدة التوحيد والنهي عن الشرك، لأنه الأصل لما دونه، وغيره قائم عليه. وقدم الصلاة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنها أصل العبادات، وهي مقدمة عليه بالزمن والأهميـــة، أما من حيث الزمن ، فهي أول العبادات التي تطلب من الإنسان، فيؤمر بها الطفل ويضرب عليها، وأما من حيث الأهمية فلارتباطها بأصل العقيدة، فهي أثر من آثار الإيمان بالله، لـــذا كانت عماد الدين. وقدم النهي عن التكبر على ما سواه من مكارم الأخلاق، لأن التكـــبر أساس فساد الخلق، ومنبع الانحراف، وهكذا تلحظ سبب تقدم ما قدم لأنه الأهـــم ولأنـــه يستدعي ما بعده، وأن ما بعده أثر من آثاره ومستتبع له. ومن هذا تلحظ تناســـقا نفســـيا ظاهرا أيضا. (٥٢)

٢- انتقاء الألفاظ وتناسقها مع المعاني :

إن كل كلمة في القرآن الكريم جاءت في موقعها من أختها متضامنة معها ومتآخيـــة حتى يتكامل إبراز المعنى ويتم للنسق البيان، ذلك لأن الكلمة لا تكتسب صفتها الذاتية، ولا تحمل شحنتها النفسية إلا إذا كانت متناسقة في سلك النظم، وعشيرة مع الكلمـــات الـــتي سبقتها ولحقتها، ومتزاوجة مع المعاني، ومتعانقة مع التركيب، لتنبض بالصور والمعاني، بحيث إذا أبدل مكانها غيرها جاء إما بتبدل المعنى، أو بذهاب الرونق، وأما بضعف التأثير النفسي. ولنأخذ على هذا أمثلة موضحة من النص.

يقول سبحانه: ﴿ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فإنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيـــدٌ﴾ فقد قابل بين [يشكر، وكفر] ولم يقل في الأولى: ومن يؤمن، كما لم يقل في الثانية: ومن لم

يشكر، ويظهر أنه سبحانه قال أولا: ﴿ومن يشكر﴾ لمناسبتها لما قبلها، وهو موضوع الآية، إذ وصف لقمان بالحكمة، لأنه شكر الله سبحانه، وأن لقمان عرف حق الله عليه وشكره، لأنه وفقه فآتاه الحكمة، فناسبه ﴿يشكر﴾، وأما قوله: ﴿ومن كفر﴾ فإن [كفر] في اللغة نقيض [شكر]، لأن الشكر في اللغة: الظهور، وحقيقته: الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف،(٥٣) والكفر لغة: الستر، فالكفر بالشي ستره وتغطيته، وحقيقته: جحود النعمة وسترها، (٥٤) لكن في التعبير القرآني زيادة معنى، فجاء بكلمة: ﴿يشكر﴾ أولا لينبه إلى أن الحكمة والفطرة والعقل تدعو ليس إلى الإيمان بالله فحسب، بل وعلى شكر الله على نعمه، وأعظم نعمة هي الإيمان به، فالإيمان هو وجه من وجوه الشكر لله سبحانه. وجاء بكلمة: ﴿كفر﴾ لتقابل الإيمان، إذ الكافر هو من لم يصدق بآيات الله وبراهينه الواضحة، فكفر بها، أي: حجبها عن نفسه، ومن كفر فإنما هو جاحد لنعمة المنعم عليه. وقصة لقمان جاءت ردا على من كفر بالله تعالى، وعلى من أنكر نعمه، وجحد آياته وكفر بها، فكان التقابل بينهما هنا متناسبا مع موضوع الآية بدقة، ومتناسبا مع السياق العام على أوفى وأدق وجه.

ويلاحظ أنه سبحانه قد مايز بين الكلمتين في الصيغة، فجاء بالشكر على صيغة المضارع، وجاء بالكفر على الماضي، وتبدو حكمته في ذلك، للحث على الشكر وتجديده واستمراره بتجدد وتعدد نعم الله التي لا تحصى ولا تنقطع، لان المضارع يدل على التجدد والحدوث، وللانتهاء عن الكفر وقطع أسبابه، وجعله أمرا مضى وانقضى، كما هو الأمر في صيغة المضي الدالة على حدوث الأمر في زمن مضى، وهكذا تبدو كأنها تقول: لا ينبغي أن ينقطع الشكر أو يفتر الشاكرون، كما لا ينبغي ولا يجوز أن يستمر الكفر، لأن الواجب الانقطاع والكف عنه.

كما أنه قد يحتمل الإشارة الى كثرة وقوع الكفر بالمقابلة مع قلة الشاكرين، فصيغة الماضي تستخدم أحيانا للدلالة على تحقق الوقوع،(٥٥) كما قال: ﴿ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ﴾ يونس٦٠.

وأما قوله: ﴿ لا تُشْرِكْ﴾ بدلا من أن يأمره بالإيمان، فذلك لأن ولده كان مشركا، والمشرك بالله لا يكون نافيا لله في الاعتقاد، لأنه يعتقد بوجوده ووجود غيره معه، فلم يأمره بالإيمان بالله لحصوله، ونهاه عن المنكر [الشرك] الواقع لديه.(٥٦)

وفي قوله تعالى: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾، فقد أختار كلمة [تصعر] للتكبر، و[مرحا] للتبختر والخيلاء، وكل منهما ترسم صورة شاخصة، متحركة، تراها ماثلة بحياتها وصفاتها الشكلية والنفسية، تناسق في رسمها ريشة التركيب والإيقاع والبنية والمعنى .

فتصعر معناها: تميل وتلوي، بمعنى: لا تعرض عنهم تكبرا عليهم. وقيل: هو أن يلوي الإنسان شدقه إذا ذكر الرجل عنده احتقارا. لكنه لم يقل: [تمل] أو نحوه، لأن ما عبر به من لفظ كان أدق دلالة، وأعمق مغزى فيما يرمي إليه من التنفير والكف عن هذه الخصلة السيئة.

فمن حيث التركيب، فأنها مركبة من حروف قوية، ذات إيقاع مؤثر في أصواتها، لأن الصاد حرف يتصف بالصفير والأطباق والتفخيم، فهو حرف قوي في صفاته، والعين جاءت مشدودة، والتضعيف دلالة على زيادة المعنى وقوته، (٥٧) والراء التي جاءت ساكنة بما فيها من قطع، والقطع على الراء قوي محسوس لما فيه من التكرير، فهو حرف قوي لأنه مجهور مكرر وشديد، يجري فيه الصوت لما فيه من صوت زائد،(٥٨)وهو في موقعه هذا يفخم عند تلاوته، وكل ذلك يكسب المعنى قوة، ويلتقي مع الغاية منه.

وأما من حيث البناء، فان [تُصَعِّرْ] على وزن [تفعّل]، والصيغ المضعفة فيها زيادة معنى على غير المضعفة، لأن زيادة الصوت دلالة على زيادة المعنى،(٥٩) فيكون متناسقا في دلالته

على المبالغة، مع المبالغة في النهي عن التكبر، ولذا يقول الزجاج: إن تُصَعِّرْ و تُصَاعِر (وهما قراءتان)[٦٠] وتُصْعِر في المعنى واحد، إلا أن تُصَعِّر وتُصَاعِر أبلغ من تُصْعِر، [٦١] وتُصَعِّر أبلغهما. ثم إن صيغة [تُفَعِّل] تفيد وقوع الفعل على سبيل التكرير والتدرج مرة بعد أخرى.

وأما من حيث الدلالة على المعاني، فإن [تصعر] أوفى، لما تتضمنه من معان ثانية، فهي مع أنها تنهى عن التكبر، فأنها تنهى عن استحقار الناس وإن لم يكن عن تكبر، وهكذا في استخدام صيغة المضارع الدالة على الكف عنه الآن ومستقبلا. كما أن فيها مقابلة في الصورة بين الحالة الظاهرة والحالة المضمرة، وهو ما أشرنا إليه سابقا من ورود التشبه فيها، فأن الصعر في أصله اللغوي داء يصيب الإبل فيلوي أعناقها، يقال: أصاب البعير صَعَرٌ إذا أصابه داء يلوي منه عنقه، فيقال للمتكبر: فيه صعر تشبيها به، [٦٢] فشبهه بالبعير في حركته، وشبه ما فيه من داء نفسي يبعث على التكبر بالداء الذي يصيب البعير فيلوي منه عنقه، وفيه إشارة إلى أن المتكبر مصاب بمرض قبيح في نفسه يلزمه معالجته.

فالتقى هذا الحشد المتناسق في رسم صورة ذلك الإنسان المنفوخ المتعجرف، الثقيل على النفس، الممقوت بين أقرانه، المنفر منه، وهو شاخص أمام الشاهد بحركته وحالته النفسية المحسوسة، على خلاف صورة الرجل الثاني الذي يمشي مشية الخيلاء، إذ انتقى لها كلمة: [مَرَحًا] لما تحسه من خفة هذا التركيب، بحركاته المتوالية الخفيفة، وهي حركة الفتحة أخف الحركات، وانتهائه بالألف اللينة الخفيفة، لتناسب خفة هذا المتخايل الذي يمشي على الأرض وكأنه يكاد يطير عنها، مثاله مثال من أخذته نشوة الطرب والغناء واللهو، فتراقص بيديه وقدميه وجسمه مزهواً فرحا، حتى إذا ما رجع إلى نفسه أطرق خجلا مما كان فيه، لأن أصل المرح في اللغة هو الذي لا يحكم أموره، [٦٣] فجاءت تلك الكلمة لترسم صورة متحركة أمام العين لهذا الرجل الخفيف، وهو يوالي حركاته المتتابعة التي يتجسم فيها التعجب بالنفس والتبختر.

وهكذا تلحظ أن كلمة واحد ترسم صورة متكاملة متحركة، تحس فيها الحالة النفسية، كما تحس بالصورة المادية، بأمواج من التلوين والتنسيق بين المعنى المراد إبلاغه بالصورة المعبرة وبين نسق التعبير وما تآلف عليه، فإذ ما يراد إبراز المعنى بثقله وضخامته أو بخفته وضعفه تبعا لموضوعه، تجد جو النص كله يخدم هذا المعنى ويصوره، بحركاته وأصواته وتراكيبه ودلالاته الظاهرة والخفية، وبما يلقيه من جرس وظل على السمع والخيال. (٦٤)

وفي قوله تعالى: ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ اختيار كلمتي: [اقصد] و[اغضض]، وإذا تمعنا فيهما ورجعنا إلى الآية وجدنا أن ليس المراد من قوله: اقصد، هو مجرد النهي عن المشي السريع، وإنما هو الامتثال لكل ما تنطوي عليه هذه اللفظة مما ينسجم مع عقيدة المؤمن، وذلك لأن القصد يدل على معنيين أصليين، أحدهما: إتيان الشيء وَأَمِّه. وثانيهما: الاكتناز في الشيء. (٦٥) وعلى هذا يكون المعنى في قوله:﴿ واقْصِدْ في مشيك﴾ أي: امشِ المشية المستقيمة المعتدلة، واقصد بها هدفا، بمعنى: امشِ المشية القاصدة إلى هدف، (٦٦) فلا تكن في مشيك معوجا ولا متماوتا أو واثبا مما لا يليق بحال الرزانة والوقار، ولا تكن فارغا من هدف فيها، وقد قرئ: (وأقصد) بقطع الهمزة، أي: سدد.(٦٧)

وهكذا [واغضض] فللغض في اللغة أصلان صحيحان، أحدهما: الخفض، والثاني: الطراوة. (٦٨) وكلاهما يحتمل الإرادة، لأنهما مطلوبان معا، ولاسيما عند الدعوة، فيكون المعنى: اخفض صوتك فلا تجعله زعيقا، ولا ترفعه بدون حاجة، واجعله طريا لينا مع من تتحدث إليهم وتحاورهم، وكلاهما يناسب المقام في الموعظة، ومندوب إليه في الدعوة.

إن هذا الإيجاز البليغ الممتع، والثراء في المعاني، تحس معه وكأن الكلمات قد تحولت إلى خزائن للمعاني، مع دقة التناسب بين المعنى المعبر عنه واللفظ الحامل له، وتناسق في الصور والإيقاعات والهيئات المناسبة لجو النص.

٣- أسلوب التوكيد وأثره في المعنى :

لقد استخدم القرآن الكريم أساليب التوكيد المختلفة في مواضع دون مواضع، وقد يورد الجملة مؤكدة بمؤكد واحد، وقد يوردها بأكثر من مؤكد، وليس هذا مصادفة، وإنما هو كل حسب اقتضاء مقامه وموضوعه، ولتوضيح ذلك نورد الأمثلة آلاتية:

جاء في مفتتح مواعظ لقمان: ﴿وهو يعظه﴾ فأكد المعنى بمؤكدين، أولا: بالضمير المنفصل،وثانيا: بما نتج عن تقديم الضمير من بناء جملة اسمية يعبر بها عن المعنى، وهى أقوى وآكد من الجملة الفعلية. ولما كان الفعل يدل على التجدد والحدوث والتغيير، والاسم يدل على الثبوت والاستقرار. [٦٩] فإنه أتى بالصيغتين لتدل كل منها على معنى لا تدل عليه الأخرى.

فالصيغة الفعلية المضارعة:[يعظه] تفيد الحدوث والاستمرار في الحال والمستقبل، فهي تدل في موضعها على أن لقمان كان يجدد وعظه لابنه، ويحدثه المرة بعد الأخرى بهدف إقرار الموعظة في قلبه، فأتى بالصيغة المضارعة تناسبا مع عمل الموعظة وما ينبغي أن تكون عليه الدعوة وحركتها، وقد أكسبها التوكيد إظهار أهمية الاستمرار في الموعظة، وتأكيد صحة موقف لقمان منها، وهو إشعار بلزوم الإقتداء به. وأفادت الجملة الاسمية ثبوت لقمان على موقفه ومنهجه في الدعوة، وثبوت النية الخالصة للإرشاد إلى الخير في قصده، لأن النية والقصد والإيمان بالمنهج لها حقيقة ثابتة تقوم بالقلب، ويكسبه التوكيد إبعاد التهمة عنه في وعظه، ودعوة إلى الثبات على المنهج.

فأنت تلاحظ أنه عبر بالفعل الدال على التجدد لما يحدث فيه التجدد ويناسبه وهو العمل، لأن الدعوة والموعظة أمر فعلي شأنه الإنقطاع والتجدد، فكلاهما حدث وحركة، وناسب بين النية الخالصة والموقف من المنهج، وبين الجملة الاسمية، لما بينهما من توافق في الاستقرار والثبوت، وعدم التغير والتجدد.

وقال في ختام هذه الآية: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فأكدها (بإنَّ وباللام) ثم بتقديم النهي وفصل علته عنه، فلم يقل: لا تشرك فإن الشرك، بل أسقط أداة الوصل (حرف العطف) للتأكيد بالفصل، وأتى بالعلة منفصلة مستقلة، تناسبا مع المقام وأهميته، فأن المقام في أهم أمر من أمور الدين، وأهم ما جاء في الموعظة، إذ كل ما سواه مبني عليه، وهو قضية الإيمان بالله وعدم الشرك، كما أن فيه تأكيدا على أن الشرك أعظم الظلم وأشنعه، فهو ظلم لأن فيه وضع العبادة في غير موضعها، ومعه أنه لا يجوز أن يكون غير موضعها الأصلي موضعا لها أصلا، وذلك لأنك إذ تأخذ مال زيد وتعطيه عمرا يكون ظلما، ولكن جائز أن يصير ملكه لاحقا بعد إعطائه له ببيع أو تمليك أو هبة، وأما الإشراك فوضع المعبودية في غير الله تعالى ظلم، ولا يجوز أن يكون غيره معبودا أصلا، لاسابقا ولا لاحقا،(٧٠) فلهذه الأهمية أكده بتلك المؤكدات، كما نعلم أن ولده كان مشركا فهو منكر، والتأكيد يستخدم حسب المقامات والأحوال، ويتعدد تبعا لأحوال المخاطب وموقفه من الخبر.

لكن القرآن قد يستخدم التوكيد بأكثر من مؤكد مع من لا ينكر الموضوع المخاطب به، على خلاف ما جاء هنا، وذلك عند اقتضاء المقام أسلوبا آخر لغرض بليغ فيه، من ذلك قوله: ﴿ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ فقد أكده بإنَّ وباللام، وفي الظاهر لا أحد ينكر قبح صوت الحمير، ونكتته: أن الإنسان قد لا ينكر قبح فعل ما، لكنه مع ذلك يفعله عن جهل منه أو عادة أو تماديا، أو لغفلته عنه وعدم تحوطه من الوقوع فيه، ومثل هذا قد يخاطب مخاطبة المنكر تنبيها له على فعله السيئ إذا ظهر منه شيء من أمارات الإنكار، (٧١) مثل التمادي في المنكر، أو التعود على العمل السيء ، أو الانشغال عن التنبه إلى قبحه لكرور العادة، فإذا أتيت له بالكلام مؤكدا بما يقتضيه حال المنكِر نبهته إلى قبح فعله وتماديه في غفلته لكي تنتزعه منه انتزاعا. وتكرار التأكيدات في الخطاب يكون بحسب الحاجة وحد الغافل من الغفلة والتعود على الفعل، فمن الغافلين ما يكفي في تنبيهه الكلام، ومنهم ما

يحتاج إلى التحريك باليد، ومنهم ما يحتاج إلى الأمرين معا، ومنهم ما لا يتيقظ إلا بأكثر من ذلك.

ومما أختلف أسلوب التوكيد هنا مع مقامات أخرى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ذلكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ بينما قال في سورة الشورى: ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ الشورى٤٣، فقد جاء التأكيد في آية الشورى بإنَّ وباللام، في حين اكتفى في آية لقمان بالتأكيد بإن فقط، وقد أجيب عن هذا الاختلاف في التعبير بعدة إجابات، منها:أن آية لقمان هي مجرد إخبار عن حال ما وقعت الوصية به، فلم تقتض التوكيد بـ[اللام] مع [إنَّ] كما في الشورى، بينما وردت في الشورى مؤكدة بمؤكدين لما سبقها من توطئة للقسم، فاللام في ﴿ولمن صبر﴾ دالة على تضمين الآية معنى القسم، فناسب ذلك زيادة اللام للتأكيد في خبر إنَّ. (٧٢) ومنها: أن ما أشير به بـ [ذلك] في آية لقمان يعود إلى أربعة أشياء سبقت، هي: ﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ على ما أَصَابَكَ﴾، والأربعة من العدد القليل، لا سيما إذا ما قورن بالأمور المشار إليها بـ[ذلك] في الشورى، فهي تنيف عن عشرة أمور، فناسب الكثرة هذه زيادة اللام المؤكدة. كما ناسب القلة في المشار إليه قلة أدوات التوكيد.(٧٣)

ومنها: أن الأمر الذي يصيب الإنسان نوعان: نوع للإنسان فيه غريم، ونوع لا يوجد فيه غريم، فالمرض مثلا الذي يصيب الإنسان ليس فيه غريم، بينما إذا اعتدى عليَّ إنسان من غير سبب، فأنه يكون لي غريم، والصبر في مثل هاتين الحالتين يكون: صبر النفس فيما ليس فيه غريم، وهو هين، إذ ليس هناك ما ينفعل عليه لينتقم، كصبره على المرض، فليس أمامه إلا الصبر. وصبر آخر يحتاج إلى جلد وقوة إرادة، لأن فيه غريما يستطيع أن ينتقم منه، كما يستطيع أن يعفو ويغفر له، لذا فإن الآيتين تتحدث كل واحدة منها عن نوع من الصبر، ففي آية لقمان كان يتحدث عن الصبر الذي ليس فيه غريم،أو عن الصبر بصفة عامة، صبر النفس

على الطاعات واجتناب المنهيات، وصبرها على مايصيبه، وصبرها على الدعوة وما يلاقيه بسببها، فقال: ﴿واصبرْ على ما أصابك إنّ ذلك من عزم الأمور﴾، وفي الشورى كان الكلام عن صبر مخصوص، هو الصبر الذي فيه غريم فقال: ﴿إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ لأنك تستطيع أن تنتقم وتستطيع أن تصبر، فالصبر فيه: ﴿ لمن عزم الأمور﴾، وهذا ما يظهر من قوله قبله: ﴿ولمن صبر وغفر﴾ فكلمة [غفر] تظهر أن هناك غريما يمكن الانتقام منه، ويمكن أن يغفر له، (٧٤) يؤكده قوله تعالى قبلها: ﴿ والذينَ إذا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هَمْ يَنْتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ على اللهِ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الظالمينَ* وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ*- الآية إلى قوله : وَلَمَنْ صبرَ وغفرَ إنَّ ذلك لَمِنْ عزم الأمور﴾ الشورى ٣٩-٤٣ ومن هنا لابد أن تأتي اللام لتوكيد المعنى وتؤكد الفرق بين عزم الأمور في الحالتين.

وأما إذا كان المقام في بيان صفات الله سبحانه فلا يؤكد الكلام بأكثر من مؤكد واحد، ﴿ إنَّ اللهَ غنيٌّ حميد﴾ ﴿ إنَّ اللهَ لطيفٌ خبير﴾ ﴿ إنَّ اللهَ لا يحبُّ كلَّ مختالٍ فخور﴾ لأن صفات الله ظاهرة في الأنفس والآفاق لا ينبغي أن تنكر، وأكدها بمؤكد واحد لأن ولده لم يكن موحدا مخلص الإيمان فأتى له بالكلام على حاله، كما أننا قد نجد من الناس من يجادل في الله وفي صفاته، ويعتقد بمشاركة غيره معه فيما أعطى وأنعم.

٤- الإيقاع والنغم:

لا يخفى أن للإيقاع الموسيقي الذي يتبدى في بنية التعبير القرآني أثرا مهما في الإثارة النفسية، وتوليد مختلف الانفعالات والعواطف، فهو يؤدي وظيفة أساسية تصاحب النظم في تبليغ المعنى واستقراره في القلب، لما يمتاز به من جمال ساحر، وموجات إيقاعية مؤثرة، نابعة من تآلف الحروف في الكلمات، وتناسق الكلمات في الجمل، وتناغم الجمل في النظم، كما

تصاحب نظام الفواصل والقوافي، وما يتبع ذلك من تنوع الموسيقى الداخلية التي تخضع للنظم الخاص في كل موضع، وتتلون بقصر الفواصل وطولها وتوسطها.(٧٥)

وإن قصة لقمان التي جاءت ضمن سورة مكية قد امتازت في أسلوبها وإيقاعاتها بما امتازت به السور المكية، من إيجاز بليغ، وإيقاع موسيقي سريع. وتناسق وتوازن محسوس في إيقاعاتها الداخلية. فاقرأ آياتها لتجد ذلك في نفسك بارزا: ﴿ يَا بُنَيَّ: أَقِمِ الصَّلاةَ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ، إِنَّ ذلكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾، ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ، وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرِحا، إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ، وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ، إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾، والتنوع في الإيقاعات ظاهر بين الطول والقصر، والسرعة والبطئ، والقوة واللين، تبعا لتنوع المقامات والموضوعات.

فمرة تكو ن قصيرة هادئة لا تحس بسرعة غير اعتيادية فيها كالآية الأولى، لأنها جاءت لتقرير الأحكام التي تضمنتها، فعرضتها عرضا تقريريا، إذ هي من الأحكام المعهودة الواضحة، فلا تحتاج إلى إبرازها في هذا المقام بغير ما جاءت به، مثالها مثال الآية الأولى في وصية لقمان: ﴿ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عظِيمٌ﴾، لكننا نلاحظ أن المقطع الأخير: ﴿واصبرْ على ما أصابك﴾ هو أطول نسبيا مما سبقه، وكأنَّ ذلك حاصل لعوده إلى ما سبق في الآية من صلاة وما ذكر بعدها.

ومرة تكون قوية متموجة في مقطع، ورخية سريعة في مقطع آخر، كما في الآية الثانية، ﴿ولا تُصَعِّرْ خدَّك لِلنَّاس، وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ فأنت تلحظ توالى الشدات في كلمات المقطع الأول، وما يصاحبها من وقفات وأصوات قوية، بينما توالت في المقطع الثاني المدات المتنوعة، والأصوات اللينة، والحركات الخفيفة المتوالية، ولاسيما في [مَرَحًا] وبما يكسب هذه ليناً وسرعة وخفة، ويكسب الأولى قوة وثقلا وتباطؤ بالنطق بها.

وتارة ترد متوازنة في المقطعين تجمع بين القوة واللين، والرصانة والاسترسال، والتقطيع في الموجات الصوتية، تصحبها اهتزازات ظاهرة، كما في الآية الثالثة: ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ، وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾. ومرة تكون متموجة رخية، طويلة شيئا ما، خاشعة، كما في قوله: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِها اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾. وقد امتازت هذه عن غيرها بطولها، ولون إيقاعها، لاختلاف مقام عرض موضوعها عما هو عليه في البواقي، فقد عرض قضية الإيمان بصفات الله وباليوم الآخر في صورة متنوعة الأشكال والأحداث، وفي مجال خاص يختلف عما عرضت فيه الأخريات. ويلحظ أن الموسيقى المنبعثة في هذه الآية يتخلل وسطها صوت وإيقاع قوي، يفصل بين ما سبقه ولحقه، تحسه في كلمة [صخرة]، فهو يختلف عن الإيقاعات الأخرى اللينة فيها. وكأنه في موقعه هذا يفصل بين مقامين وموضوعين، فما سبقه كان عن مدى صغر الحبة المتحدث عنها، وابتدأ الحديث بالصخرة عن أماكن الاكتنان والاختفاء، لينقل السامع مع هذا الإيقاع إلى جو آخر، وينبهه إليه.

وهكذا اتزان الفواصل والقوافي التي تختم بها الآيات، وما ينبعث منها من إيقاعات موسيقية مؤثرة ومتساوقة مع مقاماتها وموضوعات آياتها: ﴿إِنَّ اللهَ غنيٌّ حميد﴾، ﴿إِنَّ الشركَ لَظلمٌ عظيم﴾، ﴿إِنَّ اللهَ لطيفٌ خبير﴾، ﴿إِنَّ ذلك من عَزْم الأمور﴾، ﴿إِنَّ اللهَ لا يحبُّ كلَّ مختالٍ فخور﴾، ﴿إِنَّ أنكرَ الأصواتِ لَصَوْتُ الحمير﴾. فهي فواصل قائمة على وزن محسوس ومتذوق، لكنها تختلف بين الإيجاز الشديد والطول نسبيا، حسب اقتضاء المقام والموضوع، مع أنها تتحد في وزن القافية.

ومن الملاحظ أن أربعة منها (الأخيرة) جاءت متحدة بحرف روي واحد، هو [الراء] المسبوقة بحرف مد، وحرف الراء هنا يناسب مقامه تماما، لأن الأسلوب في هذه الآيات كان يجري على أساس المبالغة في الترغيب أو التنفير، وحرف الراء يناسبها، لما فيه من صوت

زائد يجري فيه، مع قوة في التكرير، وهذا الحرف الذي ابتدأ الروي به مع هذه الآيات قد بنيت عليه فواصل الآيات التي تبعتها في السورة، سوى ثلاث آيات فقط.

بينما وردت الآيتان الأولى والثانية في القصة بحرف روي مختلف عما بعدها، وإن اتحدت معها في وزن القافية، فالأولى ختمت بـ[حميد] فالدال رويها، والثانية بـ[عظيم] فالميم رويها، والسبب في ذلك –والله أعلم– أن الآية الأولى فصلت بحرف الدال لأنها افتتح بها سياق جديد، هو سياق القصة، وحرف الدال لم يرد في فواصل الآيات التي سبقت قصة لقمان، وإنما كانت تختم بالميم أو النون، فلما كان السياق مختلفا عما سبقه، في كون القصة مساقة في مقام الاستدلال على صحة منهج المؤمنين وخطأ تفكير المشركين ومنهجهم، والإخبار عن أمر لقمان مع ابنه، فقد اقتضى التغير في ذلك، تنبيها على السياق الجديد، وإشعارا بأهميته.

وأما ختم الآية الأولى من موعظة لقمان بحرف الميم، فذلك – والله أعلم –لأنها أول آية في المواعظ، فهي سياق خاص ضمن السياق العام، فتميزت للتنبيه، ثم –وهو الأظهر– أنها هي الأهم من بين موضوعات الموعظة، لتعلقها بقضية الإيمان بالله وعدم الإشراك به، فهي الأصل لما بعدها، فكان تميزها في رويها تابع لتميزها في موضوعها، فاقتضى ذلك إيقاعا خاصا بها. علما بأن حرفي الميم والنون هما الغالبان على جميع الفواصل في سور القرآن.(٧٦)

٥ – الحشد الفني وتناسقه مع الموضوع :

درسنا فيما سبق بعض جوانب الإبداع في المظهر الفني وتناسقه مع وحدة الموضوع وأثره في تأدية رسالة النص القرآني، وقد عرضناها على أساس قاعدة المثال لبعض الظواهر الفنية البارزة، لكننا في هذا لا نكون قد أعطينا صورة أكثر وضوحا ما لم ندرسها بالتحليل الفني لكافة عناصر النظم، على أساس تناسق ألوان الفن، وتناسب آفاق الجمال ودرجاته، وتلائم كل ذلك مع وحدة الموضوع، وما يقتضيه، فليس الإبداع الفني في القرآن الكريم

سمات انتقائية تجدها هنا وقد لا تجدها هناك، ولغرض إبراز هذا الجانب والتمثيل لـــه حتى لا تضيع جمالية النص وتبعثر موضوعات الإبداع، سأتناول آية واحد كمثال لذلك:

يقول سبحانه: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ . فهذه الآية التي تقرر صفات الله سبحانه في قدرته الكاملة، وعلمه الشامل، وما يتقرر عليها من حساب وجزاء عادل في الآخـــرة، لا يعرضها عرضا عاديا مجردا من الصور والمؤثرات، وإنما يعرضها في المجال الكوني الفسيح، (٧٧) بصورة مؤثرة تبعث على الخوف والخشوع والهلع، بما يحسه القارئ والسامع من إيقاع عميق لكلماتها، وهو يطالع علم الله الشامل الدقيق، وقدرته الفائقة تلاحقه، وما يصاحب ذلك من حشد فني مثير، بحيث أنك إذا ما تأملت فيها لا يساورك الشك في كيفية تجلي الإعجاز لك منها، وكيف يبهرك الذي تسمع وتحس، بما تجسده في خيالك من صـــور حيـــة متحركـــة ومنظورة للأشياء الغائبة، المعنوية منها والمادية، في أحداث متشابكة من عوالم شتى، وقد جاء كل حرف فيها وكل كلمة متناسقة مع دقة علم الله تعالى بالأشياء كلها، وكمـــال قدرتـــه على استظهارها وإحضارها، وبما يتناسب مع صغر حبة الخردل، ودقة إخفائها، ومع ذلـــك يأتي بها الله، ولننظر ذلك:

تبدأ الآية بقوله: ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ وقد أشرنا إلى دلالتها فيما سبق، وقلنـــا إن صـــيغة التصغير هنا تفيد الترقيق والتحبيب والإشفاق، والملاحظ أن هذه الصيغة قـــد بـــدأت بهـــا المواعظ الثلاث الأولى، وترك الافتتاح بها في الموعظتين الأخيرتين مـــن المـــواعظ الخمـــس، والوصيتان الأخيرتان تتعلقان بحسن الخلق، والمواعظ الأولى متعلقة بأصول الدين والعبـــادة، فكانت هذه أهم وأدعى للإشفاق عليه فيها من تلك عند المقارنة، ولذا ختم الأُوَل بقولـــه: ﴿إن ذلك من عزم الأمور ﴾، كما أن الوصيتين الأخيرتين بنيتا على أسلوب قوي ومنفر عن الخصال السيئة، ناهية وزاجرة بقوة عن الرذائل من الصفات، فكان ما استخدمه فيها مـــن

كلمات قوية، وتأليف عبارات ومنفرات مثيرة لا يناسبه الافتتاح بصيغة الترقيق، على خلاف الأوَل، فهي موجبات يلزمه الأخذ بها، فصاغها بأسلوب التقرير والأمر أحيانا، وبأسلوب التصوير والإثارة للعاطفة والخيال أحيانا أخرى، مما يناسب افتتاحها بصيغة الترقيق والتحبيب.

وأما التعبير بأسلوب التصغير فيها فمع أن غرضه التحبيب والإشفاق، والمبالغة في استدعاء قلب المخاطب، ومداهنته للإصغاء، فهي هنا تناسب موضوع هذه الآية تماما، وهو الحديث عن مدى صغر الحبة ودقتها.

ثم قال: ﴿إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ ففيها من الحذف والاختصار والانتقاء للكلمات بما يناسب الموضوع تماما، ابتدأها بقوله: [إنها]، وقد فسر العلماء الضمير فيها بأنه ضمير القصة، أي: القصة أنها.(٧٨) فيكون فيها حذف وإيجاز يناسب المقام، لأنه يكسب اللفظ تفخيما وتقوية ومبالغة، فهو يدل على تعظيم المخبر عنه، يقول الرماني: (٧٩) إن الضمير هنا «ليست بضمير يرجع إلى مذكور متقدم، وإنما جاءت على شريطة التفسير لتفخيم الكلام»، وهو متناسب مع مدى قدرة الله في استخراج الأشياء الدقيقة من أماكنها المنيعة والمتفرقة، ودقة علمه بها، وتفخيم الكلام الذي رافق الصورة المنتزعة منه للتأثير بها.

ثم قال: ﴿ تَكُ ﴾ فحذف النون أولا، بينما لم تحذف في: ﴿ فتكنْ ﴾ المعطوفة عليها، فجاءت كل منهما على صيغة تناسب موضعها، فإذ كان الكلام عن مدى صغر هذه الحبة حتى صارت مثلاً في الصغر بقوله: ﴿مثقال حبة من خردل﴾ ناسبه حذف النون اختصارا، ليناسب في إيجاز تركيبة صغر المخبر عنه، وأتمها في الثانية مع إمكان الحذف لغة أيضا، لأن مقام الحديث هنا ليس كمقام الأولى، فليس هو عن تصور مدى صغرها، وإنما عن تصوير

تمام اختفائها، فناسبه الإتمام في الفعل إشارة الى إتمام اختفائها، زيادة على تناسبها مع دقة علم الله الشامل وكمال قدرته على الإتيان بها.(٨٠)

كما أن لكلمة [تَكُنْ] إيحاء بصوت [تَكِنّ] من الكينونة بمعنى الاستتار والاختفاء، (٨١) وهو لا يوجد في [تك]، وقد رويت قراءة بهذا عن عدد من القراء، فرويت بلفظ [فَتَكِنّ] عن عبد الكريم الجزري، وعن قتادة: [فَتَكِنْ]، وعن محمد بن أبي فجة البعلبكي: [فَتُكَنّ]، (٨٢) ولو عكس الأمر لما ناسب المقام، ولو أتمهما أو حذف النون في الموضعين لما تحصل هذا التعبير الفني المقصود، والمؤثر القائم، والتناسب الحاصل.

ثم إن القرآن الكريم جمع مع حذف النون في [تك] إضمار اسم كان، وتظهر مزية هذا الحذف والإضمار في اسم كان زيادة على جماله وتفخيمه وتناسبه، فيما يتركه من باعث على التأمل في حقيقة المتحدث عنه، ومما يثرى ذلك النص من معان محتملة تناسب المقام، لأنه في مثل هذه الحال يجعل النص صالحا لتقدير كل ما يحتمله من المعاني الصحيحة، فيعبر عن المعاني الكثيرة بأوجز الألفاظ، وتقديره: مسألتك، أو:حاجتك من رزق وغيره، أو: الخطيئة والسيئة، أو: المظلمة، أو غيرها مما يناسب المقام، (٨٣) وكلها تحتمل الإرادة، وتصلح مع مجمل دلالة النص، تناسقا مع الموضوع، وهذا يتحقق سواء كانت تامة أو ناقصة، فقد نقل مكي عن نافع أنه قرأ برفع مثقال، ونصب الباقون، وحجة من رفع أنه جعل [كان] بمعنى: وقع، تامة لا تحتاج إلى خبر، فرفع المثقال بها، وأتى الفعل بلفظ التأنيث حملاً على المعنى، لأن المثقال بمعنى: المظلمة، أو السيئة أو الحسنة ونحوها، فأنث على المعنى. وحجة من نصب أنه جعل [كان] ناقصة، تحتاج إلى اسم وخبر، فأضمر فيها اسمها، ونصب مثقالا على الخبر، على تقدير: وإن تكن المظلمة أو السيئة أو الحسنة قدر مثقال حبة من خردل أتى الله بها للمجازاة عليها. (٨٤)

ثم قال: ﴿مثقال حبة من خردل﴾ وهو مثل يضرب في الصغر والخفة والقماءة،[٨٥] فقال: ﴿مثقال﴾ و لم يقل -مثلا-: وزن، أو: قدر، لأن مثقال يحصل المعنيين، بينما كل منهما لا يحصل الآخر، فالمثقال عبارة تصلح للجواهر، أي: قدر حبة، وتصلح للأعمال، أي: ما يزنه على جهة المماثلة قدر حبة،[٨٦] وهو الأشبه بالدلالة العامة للنص.ثم أختار من ألوان الحبوب حبة ﴿الخردل﴾، وهي حبة متناهية في الصغر والخفة والقماءة، حتى قيل فيها: إنها أصغر الحبوب، فلا يدرك لها بالحس وزن، ولا ترجح ميزانا، [٨٧] فتناسب في صغرها حسب التصور إتمام استكنانها في صخرة أو في السموات أوفي الأرض وإخفاءها، وتناسب في خفتها في حال سبحها وتنقلها في هذا الكون العظيم، كما تناسب الأعمال في قيمتها أيضاً، على اعتبار أنها مهما كانت صغيرة وهينة غير ذات بال، واهية عند فاعلها، فأن الله سبحانه يأتي بها يوم القيامة ويحاسب عليها، كقوله: ﴿ وَبَدا لَهُمْ مِنَ ٱللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ الزمر٤٧، وفي هذا منفر مهم عن المخالفة في أتفه الأشياء، في السر والعلانية.

ويلاحظ أن التعبير بكلمة: [خردل] تدخل في احتمالات المعنى رزق الإنسان، على معنى: «لو كان للإنسان رزق مثقال حبة خردل في هذه المواضع جاء الله بها حتى يسوقها إلى من هي رزقه»[٨٨] لاسيما وأن من نباتات الخردل ما يستخدم غذاء، ومنها ما يستخدم بذورها في الطب، كما أن من نباتاتها ما يكون مضراً بالزروع،[٨٩] وبذلك تكون -والله أعلم - تناسب الحسنة والسيئة أيضاً، كما تناسب الرزق. ولعل حرف الجر [مِنْ] الذي سبقها يشير إلى شمولها لكل معانيها المحتملة، فلم يقل مثلا: [حبة خردل]، بل: ﴿حبة من خردل﴾، لأن الكلام عن إحاطة علم الله بالغيب كله، وفي الأشياء كلها، مهما كان نوعها وموضوعها، ومهما كان حجمها صغيراً، أو قيمتها تافهة، فناسب ذلك وجود [من] الاستغراقية المؤكدة، التي تفيد استغراق كل مذكور، [٩٠] مثالها كقوله: ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلاّ يَعْلَمُهَا﴾ الأنعام٥٩ وقوله: ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ الملك٣.

ثم قال: ﴿ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يأتِ بها اللهُ﴾ فَلِمَ [الصخرة] بالذات؟ ولِمَ جاءت هنا هذه المفردات بالذات؟ وما قيمة دلالتها؟ وما وجه تناسبها فيما بينها ومع المقام؟. فنقول والله أعلم:

إن كلمة: ﴿صخرة﴾ في موقعها وسط الآية، بصوتها القوي وإيقاعها الصاخب، تؤذن بالانتقال من حالة إلى حالة، وتنبه إلى التحول إلى جو غير جو، فإذ كان الكلام قبلها في تصوير مدى صغر الشيء المتحدث عنه، وما ناسبه من تصغير وترقيق وحذف وإيجاز في كلمات الجملة الأولى انسجاما مع الموضوع، انتقل هنا إلى تفخيم الكلام، والمبالغة في تضخيم الأشياء، تناسبا مع موضوع الكلام هنا أيضا، لأن الحديث هنا عن تصوير حالات الإخفاء والإكنان لذلك الشيء الصغير في تلك الأمور العظيمة، مع أن الله يعلم به مهما عظم مكان إخفائه، فجاء بالكلمات بما يناسبه هنا كما ناسبه هناك.

وقد اكتسبت كلمة [صخرة] قوة إيقاع وتأثير ومبالغة في إظهار المعنى المراد من جوانب عدة؛ منها: من جهة المعنى والبنية والتنكير، ثم من إيقاعها القوي الذي اكتسبته من تأليفها وموقعها، وقد أشرنا إليه سابقا. أما من حيث المعنى: فيقول ابن دريد: الصخرة ما عظم من الحجارة الواحدة. ويقول ابن سيده: هي عظام الحجارة وصلابها.[٩١] ويقول أبو حيان: ما صلب من الحجر وعسر الإخراج منه. [٩٢] فالمراد بها نوع من الأحجار المناسبة للإخفاء لا أيَّ نوع.

ثم إيقاعها الذي تحس بوقعه القوي في النفس، على خلاف ما لو أُبْدل غيرها بموقعها كالحجر مثلا، وذلك لما بنيت عليه من حروف قوية تناسب قوتها المادية، وتناسب المقام، فمن صفات حرف [الخاء] الاستعلاء والتفخيم، وهو أقوى من الحاء، ولذا فرقوا بين النضخ والنضح للماء، فقالوا: النضخ أقوى، وما ذلك إلا لغلظ الخاء وقوته، ومنه قوله تعالى: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ الرحمن٦٦، فهي غير نضاحتان، لأنه أراد: يتدفق الماء منهما

بقوة. [٩٣] و[الصاد] حرف صفير وإطباق وتفخيم، والصفير صوت زائد، فهو حرف قوي في موضعه. و[الراء] حرف مجهور يتحرك معه الوتران الصوتيان، ومكرر وشديد، وفيه يجري الصوت، وهو مفخم في موضعه عند التلاوة. فحروف بنيتها كلها حروف قوية تتصف بالتفخيم، وهو تسمين الحرف عند النطق به.[٩٤] فهي مع صفاتها الأخرى أيضاً تكسب الكلمة قوة مناسبة لدلالتها في موضعها.

ثم جاءت منكرة، في حين عرف ما عطف عليها، لأن المراد ليس صخرة معينة،[٩٥] بل هي أيّ صخرة يتصورها العقل أو الخيال البشري صالحة للاحتجاب فيها وللامتناع بها، مبالغة في المقام. وعرف السموات والأرض لأن المراد بهما المعلومتان، وتدخل فيهما كل طبقات السماوات والأرض وأنواعها، فليس المراد سماء معينة أو سماوات معينة، وفي هذا نفي لتصور أن يكون يعلم بها إذا كانت في سماء ما دون غيرها، لأن كل أفق من آفاقها سماء، كما أن كل طبقة من طبقاتها سماء، [٩٦] فهو يعلم بها وإن جعل كل السموات مكانا يخفيه فيها، أو كل الأرضين كذلك.

أما سبب اختيار هذه الأشياء الثلاثة مكاناً للإخفاء دون غيرها، فذلك لأنها تجمع طرق إخفاء الأشياء في غاية ما يتصور، فقوله: ﴿في صخرة﴾ إشارة إلى كونها من وراء حجاب منيع، وفي قوله: ﴿ أو في السموات﴾ إشارة إلى البعد، وفي قوله: ﴿ أو في الأرض﴾ إشارة إلى الظلمات، فجمع في ذلك كل الطرق التي يخفي بها الشيء مع صعوبة نيله، لأن طرق الإخفاء بهذه الأشياء تكون في غايتها بغاية صغر الشيء، وبعده عن الرائي، وبكونه في ظلمة، وباحتجابه في مكان منيع، [٩٧] ولو أقتصر النص على بعضها لما كان فيه هذه الدلالة الشاملة المستقصية لغاية طرق الإخفاء، فلما نفى إمكان إخفاء الشيء عنه سبحانه مهما صغر ودق بطرق الإخفاء كلها ثبت علمه بكل شئ أنى كان، وكيف كان، وإن كان في أماكن غير اعتيادية، وبطرق وحالات غير معهودة.

وأما ترتيب هذه الأمور الثلاثة على نحو ما جاءت، فقد بدأ أولا بما يتعقله السامع، وهو كينونته في صخرة: ما صلب من الحجر وعسر الإخراج منه، لأن إخفاء الأشياء بأماكن منيعة تحجب فيها هو المعهود بين الناس، ثم أتبعه بالعالم العلوي وهو أغرب للسامع، ثم أتبعه بما يكون مقر الأشياء للشاهد وهو الأرض، [٩٨] والسماء أشرف من الأرض، وأكثر انسجاما مع غاية الإخفاء بالنسبة للناس.

أما العطف لهذه الأشياء بحرف العطف [أو]، فلأنه هو الذي يصح معه المعنى دون غيره من أدوات العطف، زيادة على ما يبعثه من الاستفزاز للخيال البشري وهو يطالع علم الله تعالى وقدرته في هذا المجال الكوني الرحيب .بملاحقة تلك الحبة الصغيرة في أماكنها العميقة الواسعة، متأملا ذلك الشي الصغير جدا في حجمه، الخفيف في وزنه، التافه في قيمته، يتصورها نقطة سابحة في هذا الكيان السماوي الهائل، أو ضائعة في ثرى الأرض وحصاها، على ظهرها أو في بطنها، فيسيح الخيال معها صعودا ونزولا، تحيرا ويأسا، قلقا فيما يتصور، بائسا في كل مرة، لأنه يجد أن الله سبحانه عالم بأمرها، قادر على الإتيان بها، فيرتعش له وجدانه، حتى يخشع وينيب،[٩٩] وتستقر الحقيقة في قلبه.

ثم قال: ﴿ يأت﴾ ولم يقل: [يعلم] -كما هو ظاهر التعبير العادي-كون حديث الآية عن علم الله سبحانه، وذلك أن الإتيان بالشيء أبلغ من العلم به، فالإتيان به يستلزم العلم به، بينما العلم لا يستلزم الإتيان بالمعلوم أو القدرة على الإتيان به، فأثبت بهذه الكلمة العلم والقدرة معا، بينما لو قيل: [يعلم] لم تثبت بها القدرة، لأن من يظهر له الشي قد لا يقدر على إظهاره لغيره،ومن لا يقدر على إظهار ما ظهر له لغيره، يكون حاله في العلم دون حال من يظهر له الشيء ويظهره لغيره،فقوله: ﴿يأت بها الله﴾ يعني: يظهرها للأشهاد، فكانت لذلك أبلغ وأوفى بالمعنى.[١٠٠]

أما خاتمة الآية فقد ختمها بقوله: ﴿إن الله لطيف خبير﴾، و لم يأت بصفة عليم أو قدير، في أن موضوع الآية الظاهر عن علم الله وقدرته، ونكتته: أن هاتين الصفتين أنسب الصفات هنا، لمناسبتها صغر الحبة هذه ودقتها، مع محاولة إخفائها بكل الطرق الممكنة للإخفاء، فالله لطيف في استخراجها، خبير بمستقرها.(١٠١) لأنه يعبر باللطافة واللطف عن الحركة الخفيفة، وعن تعاطي الأمور الدقيقة، وقد يعبر باللطافة عما لا تدركه الحاسة، فيصح أن يوصف الله تعالى به على هذا الوجه، وأن يكون لمعرفته بدقائق الأمور.(١٠٢) والخبير هو الذي يعلم ببواطن الأمور.(١٠٣) فهو سبحانه يعلم بحقائق الأشياء كلها مهما دقت ولطفت، أو تناءت عن مجال الإدراك الحسي، ويعلم بأماكنها مهما تعاهد أصحابها على إخفائها. فتكونان مناسبة تماما لموضوع الآية في صغر حبة الخردل المضروب بها المثل هنا في صغرها، وفي إخفائها بكل الطرق الممكنة، فهو عليم بها، محيط بحقيقتها رغم صغرها، خبير بمكانها رغم إخفائها، فيخرجها ويظهرها للإشهاد. والله اعلم .

﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ لقمان٢٧.

هوامش البحث

١- الكشاف: ٢٣١/٣، تفسير القرطبي ٥٩/١٤ وفتح القدير ٤/ ٢٣٧ .

٢- الروض الأنف: السهيلي:١٢٠/٢، تفسير القرطبي: ١٤ / ٥٩ وفتح القدير ٤/ ٢٣٤ .

٣- تفسير الطبري: ٦٧/٢١ ومعاني القرآن : الزجاج ٤/ ١٩٦ .

٤ -تفسير القرطبي :١٤ / ٥٩ .

٥ -تفسير القرطبي: ١٤/ ٥٩ وروح المعاني ٢١/ ٨٣ .

٦ -الكشاف ٢٣١/٣ وفتح القدير ٤/ ٢٣٧ .

٧ - تفسير الطبري: ٢١ / ٦٨ .

٨٠ - فتح القدير: ٢٣٧/٤ .

٩ - تفسير الطبري : ٢١/ ٦٧، مجمع البيان : ٤/ ٣١٥، فتح القدير: ٤/ ٢٣٧ وروح المعاني ٨٣/٢١ .

١٠- تفسير القرطبي: ١٤/ ٥٩ وفتح القدير:٤/ ٢٣٧ ،ورد ابن المنير على قولهم بأنه خير بين النبوة والحكمة واختار الحكمة، لا نه ليس من الحكمة اختيارها، فما هي إلا قطرة في بحر النبوة. هامش الكشاف : ٣/ ٣٣١ .

١١- روح المعاني: ٢١ / ٨٣ .

١٢- تفسير الطبري : ٢١/ ٦٧ وفتح القدير : ٢٣٧/٤ .

١٣ -روح المعاني : ٢١ / ٨٣ وينظر المصادر السابقة .

١٤ -الموسوعة : أشرف غربال : ١٥٦١ .

١٥ -مفصل العرب واليهود في التاريخ : ٨٧١

١٦ -تاريخ الطبري : ١/ ١٩- ٢٢٣ .

١٧ -الروض الأنف: ١٢٠/٢ و السيرة النبوية: ابن هشام : ١/ ٤٢٧

١٨ -الأعلام:٥/ ٢٤٣ وينظر الروض الأنف :١/ ٢٦٦ .

١٩ -تاريخ الطبري:١/ ٢٤٤ ، ولهما أخ ثالث هو [هاران] أبو لوط عليه السلا م، وقد قيل: إن أم أيوب هي بنت لـوط. تـاريخ الطبري: ٣٢٢/١ والكامل في التاريخ: ابن الأثير:٩٨/١.وقد حققت في كتابي:علم الاعجاز: ١٦٧ مبحث الإخبار بالغيب، مسـألة والد سيدنا ابراهيم عليه السلام، ورجحت أن تارح هو جده، وأن آزر هو والده كما أخبر عنه القرآن الكريم، وهـذا مـا يقتضـيه التسلسل المنطقي لأحداث التاريخ.

٢٠ - روح المعاني ٢١ / ٨٣.

٢١ - فتح القدير : ٤/ ٢٤٠ .

٢٢ تفسير القرطبي: ٦٣/١٤ وفتح القدير: ٢٣٨/٤.

٢٣ -أصول النظام الاجتماعي في الإسلام :ابن عاشور : ٤٧ .

٢٤ - العلم ليس كافرا: د. محسن عبد الحميد ، مقال في مجلة التربية الإسلامية ، ع ٣س ٣ ١٩٧ ،٨ .

٢٥ -هذا الدين: سيد قطب: ٢٤.

٢٦ -التفسير القيم : ٤٠٤ .

٢٧ -رواه احمد وأبو داود، مسند أحمد بن حنبل: ٣٨٨/٥، سنن أبي داود: ٧٨/٢ والدر المنثور: ٦٧/١.

٢٨ - مدارج السالكين: ابن القيم الجوزية: ٢٨٩/٣ .

٢٩ - فتح القدير: ٤/ ٢٣٩ .

٣٠ - المصدر نفسه .

٣١ - تفسير الرازي : ١٤٧/٢٥ .

٣٢ - الدعوة الإسلامية دعوة عالمية : محمد الراوي: ٣٢٥ .

٣٣ -تفسير الرازي : ١٢/ ١٣٩.

٣٤ - التعريفات : الشريف الجرجاني: ١١١ وروح المعاني: ٢١/ ٨٤ .

٣٥ - تفسير البيضاوي: ٢٢٨/٢، إرشاد العقل السليم: ٦/ ٧٣٧ وروح المعاني: ٢١ / ٨٤ .

٣٦ - تفسير القرطبي: ١٤/ ٦٣.

٣٧ -جواهر البلاغة : ١٠٥ — ١٠٦ .

٣٨- السبيل إلى دعوة الحق: محمد البهي: ٣٢و ٤٣و ٥٠ والدستور القرآني : دروزة :٣٠٠.

٣٩- الدين والدولة — من توجيه القرآن: ٢٩ .

٤٠- في ظلال القرآن : ٦ /٤٨٣ .

٤١- تفسير الطبري: ١١/ ٦٨ وفي ظلال القرآن: ٤٨٣/٦ .

٤٢- في ظلال القرآن : ٦/ ٤٨٣ .

٤٣- تفسير الطبري: ٧٣/٢١، إرشاد العقل السليم: ٧٤٠/٦،فتح القدير: ٢٣٩/٤ وروح المعاني: ٨٩/٢١.

٤٤- تفسير القرطبي : ٦٩/١٤ .

٤٥ - في ظلال القرآن : ٤٨٦/٦ .

٤٦ - معاني القرآن: الزجاج: ١٩٨/٤، القاموس المحيط:٧١/٢ ومعترك الأقران: السيوطي: ١٣٠/٢ .

٤٧ - معاني القرآن :١٩٩/٤.

٤٨ - في ظلال القران: ٦ /٤٨٨ .

٤٩ - الكشاف: ٢٣٤/٣، تفسير البيضاوي :٢٢٩/٢ و إرشاد العقل السليم : ٧٤٠/٦.

٥٠ - تفسير الرازي ١٥١/٢٥ ، الكشاف :٢٣٤/٣ والقرطبي:٧١/١٤ .

٥١ - تفسير الرازي : ١٥٠/٢٥ .

٥٢ - في تفصيل تناسب الآيات فيها ينظر: تفسير الرازي : ٢٥/ ١٤٨وإرشاد العقل السليم : ٦/ ٧٤٠ .

٥٣ - تفسير القرطبي: ١/ ٣٩٨ وينظر القاموس المحيط : ٢/ ٦٤ - ٦٥ والمعجم الوسيط :٤٩٠ .

٥٤ - القاموس المحيط: ١٣٢/٢-١٣٣، المعجم الوسيط : ٧٩١ وبحوث لغوية : د. أحمد مطلوب ٧٨ .

٥٥ - تفسير الرازي: ١٤٦/٢٥.

٥٦ -تفسير الرازي: ١٤٦/٢٥ .

٥٧ -الخصائص : ٢/ ١٥٥.

٥٨ – المصدر نفسه : ١/١٥٥ و١٦٤/٢.

٥٩ – المصدر نفسه : ٢/ ١٥٥ بل إنك تجد هذا الأصل [صعر] حتى في تقلباته يدل على القوة والشدة في معانيه: عصر، رعص، رصع، صرع .

٦٠ – قرأ ابن كثير وأبو جعفر وابن عامر وعاصم ويعقوب: ولا تُصَعِّرْ ، بتشديد العين من غير ألف، والباقون بالتخفيف والألف، وهما لغتان بمعنى: ولا تعرض بوجهك عن الناس تجبرا. ويقول الأخفش: لا تُصَاعِرْ لغة أهل الحجاز، ولا تُصَعِّرْ بتشديد العين بلا ألف لغة بني تميم، وأصل الصعر: هو داء يأخذ بالإبل رؤوسها وأعناقها فتميل أعناقها. الكشف عن وجوه القراءات السبع : مكي بن أبي طالب ١٨٨/٢ وتقريب النشر: ابن الجزري: ١٥٩ .

٦١– معاني القرآن : ٤/ ١٩٨ .

٦٢– معاني القرآن: ٤/ ١٩٨، المفردات: الراغب:٢٨١، معجم مقاييس اللغة:٣/ ٢٨٨ والكشاف: ٣/ ٢٣٤.

٦٣ –ينظر: القاموس المحيط : ١/ ٢٥٧ والمعجم الوسيط : ٨٦١.

٦٤ –ينظر: التصوير الفني في القرآن: ٧٨ وفي ظلال القرآن : ٦/ ٤٨٧.

٦٥ –معجم مقاييس اللغة : ٥/ ٩٥.

٦٦ – في ظلال القرآن: ٦ / ٤٨٧.

٦٧ – الكشاف: ٣ / ٢٣٤ وإرشاد العقل السليم: ٦ / ٧٤١.

٦٨ – معجم مقاييس اللغة : ٤/ ٣٨٣.

٦٩ –الإتقان: السيوطي : ٣١٦/٢ وعلم التفسير–أصوله وقواعده:٢٥٣.

٧٠ – تفسير الرازي: ٢٥ / ١٤٨.

٧١ – جواهر البلاغة : ٦١.

٧٢ – مدارك التأويل : ٢/ ٩٤٢.

٧٣ – نفسه : ١/ ٣٢٧ –٣٢٨.

٧٤ – معجزة القرآن :شعراوي : ٤٧ .

٧٥ – التصوير الفني في القران : ٨٦, ٩٠ وعلم الاعجاز القرآني بين الفن والتاريخ: الباحث:٢٠٢ مبحث الإعجاز النغمي .

٧٦ – التصوير الفني : ٩١ ومباحث في علوم القرآن : د. صبحي الصالح ٣٣٤.

٧٧ – في ظلال القرآن : ٦ / ٤٨٦.

٧٨ – معاني القرآن: ٤/ ١٩٧وتفسير القرطبي : ١٤ / ٦٧.

٧٩ – معاني الحروف :الرماني النحوي : ١٤٥وينظر : الإتقان:٢٨٦/٢.

٨٠ – علم الإعجاز القرآني بين الفن والتاريخ: ٩٠. ورد ت هذه الكلمة في القرآن بحذف النون في بضع عشرة موضعا، سبعة بالتاء، وثمانية بالياء، وموضعان بالنون، وموضع بالهمزة، ويقول الكرماني: إن حذفها من غير قياس، بل تشبيها بحروف العلة. أسرار التكرار في القرآن:١١٥.

٨١ – المفردات: ٤٤٢.

٨٢- تفسير القرطبي:١٤/ ٦٧، تفسير البيضاوي:٢/ ٢٢٩ وروح المعاني:٢٦/ ٨٩ . وينظر: المحتسب: ابن جني:٢/ ١٦٨ وقال: هذا من قولهم: وَكَنَ الطائرُ، إذا استقر في وكنته، وهي مقره ليلاً، وهي أيضاً عشه الذي يبيض فيه ووكره.

٨٣ -تفسير الطبري: ٢١ / ٧١ – ٧٢، وتفسير القرطبي: ١٤ / ٦٧. وينظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع: ٢ / ١٨٨.

٨٤ -الكشف عن وجوه القراءات السبع: ٢ / ١٨٨ – ١٨٩.

٨٥ -الكشاف : ٣/٢٣٣ وفتح القدير : ٤/ ٢٣٨.

٨٦ -تفسير القرطبي : ١٤/ ٦٧.

٨٧ -فتح القدير: ٤ / ٢٣٣.

٨٨- تفسير القرطبي : ١٤ / ٦٦ .

٨٩ -الخردل جنس نباتات عشبية من الفصيلة الصليبية، فيه أنواع تنبت في الحقول مع الزروع وعلى حواشي الطرق تعد مضرة بالزرع، وتستعمل بذورها في الطب، وقد تزرع لتكون سماداً أخضر، أو لاستعمال بذورها دواء وتابلا، وهناك نوع من الخردل له ثمرة كالكرنب والقنبيط، ونوع آخر يعرف بثمرة خردلية تكون صغيرة يكاد طولها وعرضها يتساويان. الصحاح في اللغة والعلوم: نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي:١/ ٣٣٧.

٩٠- الكليات: ٨٤٠، الاتقان: ٢/ ٢٤٨وعلم التفسير-أصوله وقواعده:١٦٧.

٩١-المخصص: ١/٩٠.

٩٢- روح المعاني: ٢١ /٨٨.

٩٣ - الخصائص :٢/ ١٠٨.

٩٤ - التحديد في الإتقان والتجويد: الداني:١٥٤, ١٠١, ١١٠ وموجز البيان في مباحث القران: ٦٨ – ٦٩.

٩٥- روح المعاني : ٢١ /٨٨ .

٩٦ -الكشاف :١ /٢١٤.

٩٧- تفسير الرازي : ١٤٩/٢٥ وروح المعاني : ٨٨/٢١ .

٩٨- روح المعاني : ٢١ / ٨٨ .

٩٩- في ظلال القرآن : ٦/ ٤٨٦ .

١٠٠- تفسير الرازي : ١٤٩/٢٥.

١٠١- تفسير الطبري : ٢١ / ٧٣ والكشاف : ٣/ ٢٣٣ .

١٠٢- المفردات في غريب القرآن : ٤٥٠ .

١٠٣- المصدر السابق : ١٤٢ .

قائمة المصادر

١. الإتقان في علوم القرآن : السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، المختار الإسلامي ،ب ت.

٢. أسرار التكرار في القرآن: محمود بن حمزة الكرماني: تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، دار الاعتصام، ١٩٧٤،١م .

٣. أصول الدعوة: د.عبد الكريم زيدان، بغداد، ١٩٧٢،٢.

٤. أصول النظام الاجتماعي في الإسلام: محمد الطاهر بن عاشور، تونس، الشركة التونسية،١٩٨٥،٢م.

٥. الأعلام: الزركلي ، بيروت ، دار العلم للملايين ،١٩٧٩،٤م.

٦. بحوث لغوية: د.أحمد مطلوب،بيروت،دار الفكر،١٩٨٧،١م.

٧. تاريخ الطبري: ابن جرير الطبري، مصر، دار المعارف،١٩٨٦،٥م.

٨. التحديد في الإتقان والتجويد: أبو عمرو الداني، ت د.غانم قدوري، بغداد، دار الأنبار،١٩٨٨،١.

٩. التصوير الفني في القرآن: سيد قطب، مصر، دار المعارف،١٩٦٣م.

١٠. التعبير القرآني: د. فاضل السامرائي، العراق، دار الكتب، جامعة الموصل، ١٩٨٩م.

١١. التعريفات: الشريف على بن محمد الجرجاني، مصر، الخيرية،١٣٠٦هـ.

١٢. تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل): القاهرة، مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٨،٢م.

١٣. تفسير الرازي (مفاتيح الغيب): طهران، دار الكتب العلمية،٢،ب ت.

١٤. تفسير أبي السعود(إرشاد العقل السليم):على هامش تفسير الرازي، الطبعة الخيرية،١٣٠٨،١

١٥. تفسير الطبري(جامع البيان): ابن جرير الطبري، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٨م.

١٦. تفسير القرطبي(الجامع لأحكام القرآن): الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٨٧م.

١٧. التفسير القيم : أبن قيم الجوزية، ت محمد حامد الفقي، بيروت، دار الرائد العربي،١٩٨٨.

١٨. تقريب النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، القاهرة،دار الحديث،١٩٩٢.
١٩. الخصائص: ابن جني، ت محمد على النجار، دار الكتب المصرية، ١٩٥٢.
٢٠. الدستور القرآني في شؤون الحياة: محمد عزة دروزه، القاهرة، دار الكتب العربية،١٩٥٦.
٢١. الدعوة الإسلامية دعوة عالمية: محمد الراوي، بيروت، الدار العربية، ب ت.
٢٢. الدين والدولة من توجيه القرآن الكريم : د محمد البهي ، بيروت ، دار الفكر ، ١٩٧٥،١
٢٣. روح المعاني: أبو الثناء الآلوسي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ب ت.
٢٤. الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام:عبد الرحمن السهيلي، بيروت،دار المعرفة،١٩٧٨.
٢٥. السبيل إلى دعوة الحق: د. محمد البهي،١٩٧٠م.
٢٦. السيرة النبوية: ابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، بغداد، أوفست منير، ١٩٨٦.
٢٧. سيكولوجية القصة في القرآن: د.التهامي نقرة، تونس الشركة التونسية،٢، ١٩٨٧.
٢٨. الصحاح في اللغة والعلوم: نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي، بيروت، دار الحضارة العربية،١٩٧٤،١م.
٢٩. صحيح مسلم بشرح النووي: تحقيق خليل مأمون، بيروت، دار المعرفة ، ١٩٩٦ .
٣٠. العبادة في الإسلام: د. يوسف القرضاوي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٧٥ .
٣١. علم الإعجاز القرآني بين الفن والتاريخ: الباحث ، صنعاء ، مركز عبادي للدراسات والنشر،٢٠٠١،١م.
٣٢. علم التفسير-أصوله وقواعده: الباحث، صنعاء، مركز عبادي، ٢٠٠٢،١م.
٣٣. العلم ليس كافرا: د. محسن عبد الحميد(مجلة التربية الإسلامية) ع٣ س١٩٧٣.
٣٤. فتح القدير: الشوكاني، بيروت ، دار الفكر ، ب ت .
٣٥. فقه السيرة : محمد الغزالي ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ،١، ١٩٥٣.
٣٦. في ظلال القرآن: سيد قطب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٧١،٧.

٣٧. القاموس المحيط: الفيروز آبادي، بيروت ،دار الجيل ،ب ت .
٣٨. الكشاف: الزمخشري ، بيروت ، دار الفكر ، ١، ١٩٨٣ .
٣٩. الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججه:مكي بن أبي طالب،بيروت، الرسالة، ١٩٨٧.
٤٠. الكليات: أبو البقاء الكفوي، بيروت،دار الرسالة،١٤١٢هـ.
٤١. مباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح، بيروت،دار العلم للملايين، ١٩٧٧.
٤٢. مجمع البيان في تفسير القرآن الطبرسي، بيروت، دار التراث العربي، ب ت .
٤٣. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها: أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق د.علي النجدي ود. عبد الفتاح اسماعيل شلبي، القاهرة، نشر لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٣٨٦هـ .
٤٤. المخصص : ابن سيده ، بيروت ، دار الفكر ، ب ت .
٤٥. مسند أحمد بن حنبل :الرياض ، دار الدعوة ، ٢، ١٩٩٢.
٤٦. معاني الحروف:أبو الحسن الرماني، مكة المكرمة، مكتبة الطالب،١٩٨٦،٢.
٤٧. معاني القرآن: الزجاج، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي ، بيروت ، عالم الكتب ، ١، ١٩٨٨.
٤٨. معترك الأقران : السيوطي ، دار الكتب العلمية ،١، ١٩٨٨.
٤٩. معجزة القرآن : محمد متولي شعراوي، الموصل، العراق، منشورات مكتبة بسام، ١٩٨٩.
٥٠. معجم مقاييس اللغة : ابن فارس ، بيروت، دار الفكر، ب ت .
٥١. المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية في القاهرة، بيروت، دار الأمواج، ١٩٩٠،٢.
٥٢. المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني،بيروت،دار المعرفة، بت.
٥٣. مفصل العرب واليهود في التاريخ: د. أحمد سوسة، بغداد، دار الحرية، ١٩٨١.
٥٤. ملاك التأويل:ابن الزبير الغرناطي،تحقيق سعيد الفلاح،بيروت،دارالغرب الإسلامي١، ١٩٨٣
٥٥. موجز البيان في مباحث القرآن :كمال الدين الطائي، بغداد، سليمان الأعظمي،١٩٧١.
٥٦. الموسوعة العربية الميسرة:لجنة بإشراف محمد شفيق غربال، بيروت، دار نهضة لبنان، ١٩٨٧.
٥٧.نظرات في القرآن : محمد الغزالي ، القاهرة ، ١٩٦١ .